النفس في القرآن

الأستاذ الدكتور
أحمد عمر هاشم

التقديم : فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى
فضيلة الشيخ محمد الغزالى

التحليل : الأستاذ الدكتور جمال ماضى أبو العزايم



رئيس مجلس الإدارة
عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة المنتدب
حسام حسين

مستشار النشر
أحمد جمال الدين

رقم الإيداع
١٩٥٩٤ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولى
٨-٠٠٢-٣٩٩-٩٧٧

الطبعة الأولى

الجمع والإخراج الفنى
«مكتبة ابن سينا»
ت : ٦٣٧٩٨٦٣ ف : ٦٣٨٠٤٨٣

مطابع العبور الحديثة

الكتاب : النفس فى القرآن
المؤلف : أ.د. أحمد عمر هاشم
الغلاف : إبراهيم محمد إبراهيم
الناشر : أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م
٢٥ ش وادى النيل - المهندسين - القاهرة
E-mail:atlas@innovations-co.com
تليفون : ٣٠٢٧٩٦٥ - ٣٠٣٩٥٣٩ - ٣٤٦٥٨٥٠
فاكس : ٣٠٢٨٣٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاح .. وتمهيد

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .. أما بعد .

ففى هذا الكتاب عرض لآراء العلماء المعاصرين وعلماء السلف ، عن النفس الإنسانية ، فمن العلماء المعاصرين:

فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى
وفضيلة الشيخ محمد الغزالى
وفضيلة الأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم
والأستاذ الدكتور جمال ماضى أبو العزايم

ومن السلف : الإمام ابن القيم وغيره . ليكون فى هذه الصفحات المتنوعة جرعة متنوعة تشتمل على آراء علمائنا الأجلاء عن النفس الإنسانية .

وبالله التوفيق

التقديم

افعل ولا تفعل

فضيلة الشيخ / محمد متولى الشعراوى

وردت كلمة « النفس » فى القرآن الكريم حوالى ثلاثمائة مرة بمشتقاتها وتركيباتها المختلفة ..

وفى كلام القرآن عن النفس ذكر منها النفس اللوامة ؛ والنفس الأمارة بالسوء ؛ والنفس المطمئنة .. والنفس الراضية المرضية .. إلخ .

فإن خضعت النفس لمنهج الحق أصبحت مطمئنة ؛ وإذا تمردت على هذا المنهج أصبحت أمارة بالسوء ؛ وإذا عصت مرة وأطاعت مرة كانت لوامة ؛ فهى تطيع ، ثم إذا عصت تابت وعادت إلى منهج الله فهى : لوامة ..

لكن ما هى النفس ؟ هل هى الروح ؛ أم هما مختلفتان ؟

إن معرفتنا بالروح تدخل بنا فى نطاق ما استأثر الله سبحانه وتعالى بعلمه؛ حيثَ يقول : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء٨٥]

يعنى من المتعلقات الخصوصية لله ؛ وما هو من أمره سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس ٨٢] .

وبذلك فإن إرادة الخالق أن تكون بنا حياة ؛ فكانت الروح لتلتحم بالبدن فتكون الحياة .. فلا تحيا المادة بلا روح ولا تظهر الروح إلا فى المادة .

إذن فإن المادة تحتاج إلى الروح ؛ والروح تحتاج إلى المادة، وحين تلتقى الروح بالمادة توجد النفس . وكلمة النفس عند الأطباء الآن ؛ هى المخرج من الجهل بأسباب المرض ؛ فيقولون: إنه نفسى ، فإذا سألتهم : ما العلاج ؟ فإنهم يصفون له عقاقير ! ! .

والمعروف أن العقاقير للعضويات أى للأمراض العضوية .. ويبدو أنهم لجأوا إلى العقاقير تخديرًا لوعى النفس بمشاكلها .. ولهذا يترتب على العلاج بهذه العقاقير نتائج لم تكن فى بال الأطباء !

إنها تأتى لهم بأمراض عضوية ؛ لأن الكيماويات اختلت بنتائجها وآثارها فى النفس البشرية ؛ فإنها تعالج شيئًا ولا تدرى ماذا سيكون تأثيرها على غيره ؛ ونعرف من هذا أنهم لم يعرفوا تحديد النفس ليوجهوا إليها علاجهم .

ولو أنهم رجعوا إلى من خلق الإنسان ، صاحب هذه النفس ، لانتبهوا إلى تشخيص دائها ؛ ولأصابوا بعد ذلك فى تحضير دوائها .

النفس هى مدار التكليف من الخالق، يجمع كل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس ٧ ـ ١٠]

إذن فالمرض النفسى الذى يتحدث عنه الأطباء هو من آثار ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ والأسوياء البعيدون عن هذا المرض هم الذين يقول الله فيهم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ .

فكيف تكون التزكية ؛ وكيف يكون الدس ؟

إن الله لم يكلف البدن ولم يكلف الروح ، وإنما كلف النفس التى تنشأ من اتصال البدن بالروح .

ولذلك يخطئ من يقول : هذا منهج روحى ، وذلك منهج مادى ، لأن الروح ليس لها منهج ، والمادة لا تكليف لها .

فحين تلتقى الروح بالمادة تنشأ الحياة ، ومن نشأة الحياة تنشأ نزعات الجوارح ، فالعين تنزع لأن ترى ، واللسان ينزع لأن يتكلم ، وكل جارحة من الجوارح تتجه لمطلوبها من الحركة ، ولكن مطلوبات الجوارح شتى ، لأن كل جارحة تتطلب ما يسعد النفس ، ولكن ما يسعد مرة ، قد يشقى مرارًا ! !

ولذلك يضع الحق منهجًا لحركات هذه الجوارح ، حتى لا تحمق فى أن تتجه إلى شيء تعتبره حسنًا ثم تشقى بآثاره ، فإذا استقبلت النفس الإنسانية منهج خالقها بـ « **افعل ولا تفعل** » استراحت كل ملكاتها وتساندت لأداء مهمة الخلافة الصالحة .

وإذا انطلقت الجوارح وانقلبت بلا ضابط ولا رابط عربدت فى الكون ويصبح من سعادة واحد شقاء لكثيرين ، وسيشقى هو بسعادة غيره بما يؤلمه ! ! .

إذن فمنهج الله بـ « **افعل ولا تفعل** » هو الذى يعطى خيرًا لا يعقبه شر.

وشىء آخر جدير بالالتفات إليه ، وهو أن النفس قد تتعرض لابتلاءات تخرجها عن سعادتها. وهنا يجب عليها أن تدرس وتحلل ما تعرضت له ، وهل كان بتقصير منها فيما أقدرها الله عليه ، كالذى رسب فى الامتحان لأنه لم يذاكر ، فعلاجه أن يرجع إلى أسباب الله المخلوقة للظفر بالمسببات.

وإن أصابها شىء ليس لها اختيار فيه ، فإنه يجب أن ترده إلى حكمة من أجراه عليها ، لتعلم أنه حكيم لا يعبث فى خلقه ، فتستقر النفس على التسليم المطلق لحكمة من أجرى عليها الحدث الذى لا اختيار لها فيه . وحين تطمئن النفس إلى الحكمة تنتظر ، إما الثواب على الصبر ، وإما الوقوف على حكمة الأمر بعد حين .

وبهذا لا توجد للنفس البشرية مشاكل ، لأنها دخلت فى حوزة ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ ولم تتمرد على منهج الله حتى لا تدخل فى منطقة ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾.

إن العلاج المثالى لأمراض النفس هو العودة إلى الدين والاحتكام إلى قوانينه فى مصائب، نشأت من اختيار الإنسان ومصائب فوق اختياره .

وليست هناك صنعة من صناعات البشر يمكن لإنسان أن يستعملها أو يتعامل معها إلا وفق ما وضعه صاحبها من « نظام تشغيل » لها ، أو حسب المواصفات والتعليمات التى وضعها فى « الكتالوج » الخاص بها .

إن الخلل يحدث، عند مخالفة ما وضعه صاحبها لها من قوانين .

التقديم

النفس فى الإسلام

فضيلة الشيخ محمد الغزالى

كيف يستطيع المسلم أن يتمكن من السيطرة على نفسه .. وما هى الطريقة التى يلجأ إليها عندما يضعف الإنسان أمام نفسه ؟

يقول فضيلته : القرآن الكريم قال فى هذا الموضوع : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف ٢٠١] .

فالشيطان قد ينفث دخانًا فى أفق الإنسان فيعميه عن الرؤية ويعجزه عن السعى إلى الصلاة .. فالمسلم فى هذه الحالة يتذكر .. بمعنى أن يغالب النسيان .. ويغالب الذهول .. يغالب الظلمة التى يريد الشيطان أن يحيطه بها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف ٢٠١] لكن غيرهم ممن ليسوا أتقياء .. إذا عبث الشيطان بهم نال منهم وأوقعهم فى فخ وأعجزهم عن الحركة ..

فالأساس أن يتذكر الإنسان ربه وهيبته وحضوره وثوابه وعقابه ويتعلم من ذلك كله أن يكون مستقيمًا وأن يكون معتدلاً ..

ويقول .. إن الخطأ الأول الذى صدر عن آدم صدر عنه لأمرين اتصف بهما، وهما : قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه١١٥]

إذن كانت خطيئة آدم بسبب أمرين « ضعف الذاكرة وضعف الإرادة » فلو أنه كان قوى الذاكرة واستحضر نصيحة الله وأمره له بأن يكون راشدًا وواعيًا ما كان خسر .

وإلى جانب ضعف الذاكرة وضعف الإرادة مع مرور الأيام سيعرف أن الشر نهايته سيئة والعاقبة الوخيمة .. ومع مر الأيام تبرد هذه الحاسة فى النفس بحكم خطورة الذنب فيخاف ..

فإذا كنا نريد أن نتجنب ما وقع فيه آدم، إذن فلدينا أمران .. قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾.

إذن فلدينا التذكر وقوة العزيمة وقوة الإرداة، وتكرر هذا المعنى فى القرآن من نواح كثيرة فنجد قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَن طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات ٣٧ - ٤١] . ويقول .. نحن هنا أمام نفسيتين.. نفس تطغى وتنطلق مع غرائزها لا تبالى وهذه تقع فى الهاوية ..

وهناك إنسان آخر واجه نفسه وأمسك بزمامها ويأبى أن تقوده إلى ما تهوى، لذلك فإن الله ينجيه بسبب هذا التماسك النفسى .

هذا الأساس فى سؤالنا عن كيفية تحكم الإنسان فى نفسه، ولكن هذا من غير شك فيه صعوبة .. وصعوبته قالها الشاعر الصوفى :

قلبى إلى ما ضرنى داعى   يطيل آلامى وأوجاعى

كيف التصافى من عدو إذا   كان عدوى بين أضلاعى

هذا شخص يقول: إن الشيطان يأتى له من الداخل وليس خارجًا، فإذا كان العدوان داخل البلد ينال منها أكثر مما إذا كان من خارجها ..

المهم هنا، كيف تحرك القلب ليكون حاجزًا عن الشر ؟!

يلاحظ أن القرآن الكريم يُذكِّر دائمًا « بالمراجعات النفسية » وبالحركة الداخلية للنفس الإنسانية . فمثلاً يتحدث عن مجرم كان عالمًا . ولكن كان المفروض أن ينفعه العلم ويذكره ويعصمه ﴿ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ [الأعراف ١٧٦] . والآية تقول: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاه ﴾ [الأعراف ١٧٥ ، ١٧٦] .

متى نرفعه بها .. إذا رفع نفسه .. فلابد من أمرين .. أتحرك .. طالبًا من الله العون فيعينني .. إننى أتحرك .. فأتسامى ولا أخلد إلى الأرض فالله يرفعنى .. أما إذا استسلم لوساوس النفس ولم يحاول أن ينتصر عليها فمعنى هذا أننى ضائع يقينًا .

وهذا له باب طويل فى علم التصوف اسمه « جهاد النفس »، فجهاد النفس له مراحل كثيرة .. ومصير البشر مع جهادهم لأنفسهم ..

أما عن مواجهة الإنسان مع نفسه .. فيقول :

عصرنا الحاضر .. من أفشل العصور فى مواجهة النفس .. بل إنه يرى أن مطالب النفس قانون .. وأنه ينبغى النزول على هذا القانون وعدم الابتعاد عنه .. فالعصر الذى نعيش فيه حاليًا فلسف المعصية وجعلها رغبة تتحقق ولا ننكر عليها ما ترغب أو ما تشاء..

ولذلك فالعصر يحتاج منا أن نتجه بالدعوة إلى الله .. يحتاج منا أن نسوق نظريات ومذكرات كثيرة تجعل الإنسان يخرج من دائرة الذهول التى يرسمها حوله الشيطان ويعلم أن الله حق ويعلم أنه يجب أن يطيعه ويستعد للقائه ..

وجهاد النفس مطلوب .. فهل يمكن أن يكون جهاد نفس بغير إيمان؟.. هل يمكن التكامل والاتصاف بالفضيلة من غير مجاهدة ؟ فهذا مستحيل .. كيف أجاهد نفسي ؟ فمعناه كيف أتكمل .

الدرس أسمعه .. فأنساه فلابد أن أردده حتى أتذكر .. وفى ديوان أبى تمام يصف شخصًا ينصح الآخر .. والآخر هذا شخص كسلان يريد العلا دون أن يقدم المهر المطلوب .. يريد أن يرتفع دون أن يكون له الأجنحة .. فقال له :

وددت للمجد والساعون قد بلغوا

فكابدوا المجد حتى مل أكثرهم

لا تحسب المجد تمرًا أنت آكله

جهد النفوس وألقو دونه الأذن

وعانق المجد من أوفى ومن صبر

لم تبلغ المجد حتى تلعق الصبر

وهذا المعنى أكده المتنبى عندما قال :

ليدرك المجد إلا سيد فطن

لما يشق على السادات فعال

فنحن نريد له همة وله طموح وله جرأة على مهاجمة العوائق والتغلب عليها .. أما الكسالى وأصحاب الإرداة الواهنة فيجب أن يبقوا فى أماكنهم.. لا قيمة لهم ولا خير فيهم ..

ثم كيف يستطيع أن يعيش الإنسان فى سلام مع نفسه، وما هى الأشياء التى يلجأ إليها لتحقيق هذا السلام ؟

الإنسان فيه غرائز .. غرائز تشده إلى الأدنى .. وله آمال فى الكمال تجعله يرمق الأعلى ويسعى إليه .. فكونه يبقى فى سلام مع نفسه .. بمعنى أنه يريح نفسه من التعب .. هذا هو الفشل .. إنما إذا تغلب على وسوسة الغرائز وقهرها حتى لا تشده إلى الأوحال فإنه يعيش سليمًا ويسلم من البلاء الذى يقع فيه كل من زلت قدمه فى المنكرات والآثام . السلام النفسى يجىء مع الإنسان الذى يغلق أبواب الشيطان ولا يتيح له أن يدخل .

أرى العبادات فى الإسلام أساسًا .. بمعنى أن الإسلام قال: إن الإنسان فى طباعه رداءة .

قال تعالى : ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ [المعارج ٢٠ ،٢١] هذه طبيعة الإنسان فكيف يتغلب على هذه الطبيعة .. بالعبادات التى فرضها الله عليه .. فهذه العبادات هى المصعد الذى ينتقل به من الأدنى إلى الأعلى ..

ولذلك بعد أن قال : ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ قال تعالى : ﴿إِلاَّ الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المعارج ٢٢ -٢٧] .

إذن هناك فارق بين شخص يرى أن هذه الدنيا بداية .. ونسمع المغنى الذى يقول: إن الدنيا مرة واحدة .. فهو لا يرى ولا يفهم الدار الآخرة ولا يستعد لها فهذا شخص .. واطى .. لا يمكن أن يتكمل .. لكن من عرف أنه سيلقى الله وأنه بما يفعل هنا سيجازى هناك .. أو بما يغرس هنا سوف يجنى الثمر هناك فى دار الآخرة .. وهذا ما ننتظر له الخير ..

وأخيرًا .. ما النفس وما أنواعها ؟

يقول فضيلته : النفس لا يعرفها إلا الله .. ﴿وَيَسْـأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء : ٨٥] فلا يعرف النفس إلا الله .. وعلم النفس الذى وضع الآن يتكلم عن أعراض تلحق النفس الإنسانية .. لكنه لا يفسر النفس ..

فيتحدث عن الانتباه وعن الذاكرة وعن الميول الفطرية وعن أشياء كثيرة فى علم النفس، لكن لا يستطيع هذا العلم أن يعرف طبيعة أو ماهية النفس.. ولكن نعرف أشعة الانكسار وأشعة الانعكاس وبُعد الصورة بالنسبة للضوء الساقط عليها ..

فمحاولة الوصول إلى أغوار النفس الإنسانية عبث وجنون لأنها من الله والله نفخ فيها من روحه .. وما هى روحه؟ .. لا أعرف .. فأنا نفخة من روح الله .. فإذا عرفت هذه النفخة عرفت الله ..

وما نعرفه عن النفس الإنسانية أو الروح الإنسانية بأن لها مظاهر ولها أوصافا ولها اتجاهات ورغبات ولها منازل تصعد وتهبط منها.

كل هذه صفات .. فالنفس اللوامة هى صفة شخص يضيق بالرذيلة ويأبى أن ينحدر إليها، وإذا مسه شىء منها تغير وتغيظ وحاسب نفسه وارتفع وهى النفس التى أقسم الله بها .

النفس الأمارة بالسوء .. نفس هابطة ..

النفس المطمئنة .. هى صفة نفس تقية نقية تخاف بأس الله وعقابه .. وهى لن تستقر وتستريح إلا إذا عادت إلى ربها من قريب ، وصاحب هذه الشخصية مستقر .. لا يكذب ولا يتملق لأنه مطمئن إلى ما عند الله .



الفصل الأول

العبادات وأثرها
فى تزكية النفس

الأستاذ الدكتور
أحمد عمر هاشم

إن للعبادات أثرها فى تزكية النفس الإنسانية ؛ لأنها ليست مجرد حركات جامدة لا روح فيها وليست طقوسًا غامضة لا معنى لها ، بل إن العبادات فى الإسلام تستهدف تزكية النفس ، وتطهيرها من الأخطاء والآثام ، قال الله تعالى فى شأن الصلاة :

﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [**العنكبوت ٤٥**] .

فالصلاة الكاملة التى تجمع أركانها وشروطها ويؤديها الإنسان بخشوع وخضوع ويحافظ عليها وعلى آدابها ، تنهاه عن الفحشاء والمنكر ، وتزكى نفسه وتطهره تطهيرًا ، فمادام مخلصًا فى أدائها فإن الإخلاص يدعوه إلى فعل المعروف ، ومادام يؤديها بخشية من ربه ، فإن خشيته تنهاه عن المنكر، ومادام يتدبر ما يتلوه من ذكر الله تعالى بالقرآن الكريم والتسبيح والتحميد ، ففى ذكر الله توجيه له إلى المعروف ونهى له عن المنكر ، قال أبو العالية : «إن الصلاة فيها ثلاث خصال: الإخلاص، والخشية ، وذكر الله؛ فالإخلاص يأمره بالمعروف ، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر الله - القرآن - يأمره وينهاه، فكل صلاة لا يكون فيها شىء من هذه الخلال فليست صلاة» . [**تفسير ابن كثير**]

ونعنى بالصلاة هنا الصلاة الكاملة التى جمعت سمات القبول، فإذا نظرنا إليها مثلاً نجد أن لها أثرًا بالغًا فى تكوين الشخصية، وتزكية النفس الإنسانية، إنها تتكرر كل يوم خمس مرات فى اليوم والليلة، بها ينتهى المسلم عن كل شر: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ فإذا

كانت فى جماعة فالعظيم يأتى إليها متخليًا عن العظمة والاستعلاء ، والصغير يأتى إليها مرفوع الأمل والرجاء، وإذا أداها المسلم منفردًا فإن فى وجدانه آصرة لا تغيب عنه، تربط بينه وبين الجماعة، ويخرج من صلاته بسمته المتواضع، فلا يتعالى ولا يستطيل على الناس، وبقلبه الخاشع فلا يصر على معصية الله تعالى، ويظل متذكرًا خالقه الذى عنت له الوجوه، وسجدت له الجباه، وانقادت له الجباه، ويعطف على المحتاجين والضعفاء، ولقد جاء فى الحديث القدسى:

«إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى، ولم يستطل على خلقى، ولم يبت مصرًّا على معصيتى، وقطع النهار فى ذكرى ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ورحم المصاب». [رواه البزار]

وإلى جوار ذلك تتميز شخصيته فى هذه العبارة بالمظهر اللائق من النظافة والزينة والحلال، حتى يظهر بالوقار والسكينة المألوفة المحبوبة طاهر الثوب والبدن والمكان، وفى الصلاة رياضة للجسم والعقل والروح. وفى الصلاة تزكية للنفس الإنسانية، حيث يجد المصلى متنفسًا لمتاعبه، فيستعين بها كما قال الله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥]

ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، فهى مرفأ الراحة والطمأنينة، ومنزل الأمن والسكينة، بها يتغلب الإنسان على نوازع الجبن والخوف، ومواقف الهوى والخمول، وفيها مقاومة للجزع الذى يصيب بعض الناس وقت نزول الشدة، وعلاج للنفوس المناعة للخير،

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلاَّ الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ١٩-٢٣]

والإنسان فى أمس الحاجة إلى أثر الصلاة فى تزكية نفسه الأمارة بالسوء وحاجته الضرورية إليها - فى اليوم والليلة - خمس مرات، كحاجته إلى طعامه وشرابه، بل أشد، فكما يحتاج البدن إلى تقويته بالطعام والشراب، فإن النفس محتاجة للصلاة لتقويتها وتنقيتها وتزكيتها من سائر الآفات والرذائل.

وفى الزكاة تهذيب للنفس الإنسانية، وتطهير لها من آفة الشح والبخل حتى تتطهر من البخل، ويصبح البذل عادة للإنسان، كما أن فيها تطهيرًا للمال وحفظًا له، وتطهيرًا لنفس الفقير من آفة الحقد والكراهية. وكما أن الصلاة رابطة بين العبد وربه، فإن الزكاة رابطة بين الإنسان وأخيه الإنسان، تتم بها معانى التواد والتراحم، وتطهر بها النفوس وتتزكى، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]

وكما أن الصلاة عبادة بدنية وفيها رياضة جسمية، فإن فى الزكاة رياضة نفسية يستفيد منها الغنى والفقير، فتجعل الغنى يتمرس على البذل والتضحية بالمال العزيز على النفس، وتعوده كيف يغالب الشح والحرص ويتسابق إلى العطاء والإيثار مستشعرًا مسئوليته عن غيره وسط دائرة التكافل الاجتماعى.

وكما أن الصلاة عبادة بدنية يتمثل فيها شكر الله تعالى على نعمة البدن، فإن الزكاة عبادة مالية يتمثل فيها شكر الله تعالى على نعمة المال،

وهى برهان على صحة إيمان صاحبها وصدقه، قال صلى الله عليه وسلم: «.. والصدقة برهان». (رواه مسلم)

وللصيام دوره فى تزكية النفس حيث يغرس فى نفس الصائم فضيلة الصبر بما يحتمله من الإمساك عن الطعام والشراب وسائر المفطرات، وفيه إطلاق للإنسان من حبس العادات والشهوات.

وفى الصوم تطويع للجسد على الطاعة، وإحساس برابطة قوية تربط بين الصائم وبين سائر المؤمنين الصائمين؛ حيث إنهم فى وقت واحد يمسكون، وفى وقت واحد يفطرون، فتسرى روح الوحدة بين الأسرة الإسلامية فى مختلف الأقطار والديار.

وبالصوم يتولد الضمير الدينى الذى يكف صاحبه عن كل ما يخل بالدين والمروءة الإنسانية، وتشرق حياة المسلم بالإخلاص لله فى السر والعلانية، وتقوى إرادته، وينشط عزمه وتصميمه، وبالجملة فهو يصل إلى تقوى الله تعالى كما قال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]

وفى الحج عبادة بدنية ومالية لها أثرها فى تزكية النفس. بما تغرسه من معانى الألفة والاجتماع، وتدارس ذكريات المناسك والمشاعر، وما فيها من احتمال المشقة، والاستفادة من السياحة الدينية التى تعلم المسافر ما يجهله المقيم .. وللحج أثره حين يجتمع الحجاج فى صعيد واحد، وبزى واحد فى وقت واحد يتعارفون ويتدارسون أمور دينهم ودنياهم ويفضى بعضهم إلى بعض.

ويزكى الحج نفس المسلم ويهذبها، فتظل طاهرة من الرفث والفسوق والجدال، فيتحلى بالطيب من القول والعمل ومكارم الأخلاق، قال الله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ [البقرة١٩٧]

ويتجرد المحرم بالحج من ثيابه المألوفة التى تتبدى بها مظاهر التفاوت والاختلاف بين الناس، ويلبس ملابس الإحرام التى يتساوى فيها جميع الناس غنيهم وفقيرهم، ورئيسهم ومرءوسهم. فتزكى عبادة الحج نفس الإنسان من التعالى والغرور، ويتحلى بالتواضع والشعور بالمساواة والألفة والمحبة بين الناس .

ويجب على كل مسلم أن يستمر على هذه العبادات ، وألا يؤديها وينقطع بعد قليل أو كثير عنها، فقد قال صلى الله عليه وسلم: « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل». [رواه البخارى]

كما يجب على كل مسلم أن يداوم على ما تحلى به من فضائل جاءت ثمرة لهذه العبادات ، وألا يتوقف تأثره بالعبادات فى وقتها فحسب، كما يحدث من كثير من الناس، حيث تراه فى المسجد يؤدى صلاته على أكمل وجه، فإذا خرج من المسجد عاد إلى رذائله، ولم يبتعد عن آثامه، وكما يحدث من بعض الناس فى شهر رمضان، حيث يصومون النهار ويقومون الليل، ويمسكون بالمسبحة ويكثرون التسبيح، وتلاوة القرآن والمحافظة على صلاة الجماعة فى المسجد وفى أول أوقات الصلاة، فإذا ما انتهى شهر

رمضان لا ترى أحدًا فى المساجد كما كانوا فى رمضان، ولا ترى الجو الروحى الذى كان فى شهر رمضان.

وكما يحدث فى مشاعر الحج حيث يكون الناس عند أدائهم لفريضة الحج محافظين على أداء المناسك مجتهدين فى أدائها مستفسرين عن دقائق أحكامها، متظاهرين بالعبادة والإخلاص فيها، لكن الكثيرين منهم بعد عودته من مناسك الحج يعود أدراجه إلى ما كان عليه من قبل. وهذا كله خطأ فاحش ، وعدم أداء للعبادات على نحو جاد بحيث تكون تزكية العبادات للإنسان غير مقصورة على وقتها فحسب، بل تظل تزكية العبادة للإنسان دائمة ومستمرة فى سائر الأوقات، وفى كل زمان ومكان، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن». [رواه الترمذى]

بهذه الصورة المتكاملة للعبادات، تستشرف النفس الإنسانية حقيقة وجودها، فتظل حياتها مرتبطة بالله ، وكلما غشيتها غاشية من الدنيا، أو حاولت أن تقتحم حماها، كان لتلك العبادات من القوة الدافعة ما لا يدع مجالاً للهوى والهواجس، وكان للضمير الدينى إشراقة وانطلاقة بين هذه الدائرة التى أضاءت حياة الإنسان، وهذبت سلوكه قولاً وفعلاً، بدنيًا وماليًا، سرًا وعلانية.

ولهذا يشعر المصلى بانشراح وقت الصلاة، وتغمر الصائم الفرحة عند فطره، وينعم المزكى براحة ضميره عند الإنفاق، ويزداد الحاج تلبية لربه وتعاونًا مع إخوانه المسلمين ، وبهذا يحيا الإنسان بطمأنينة ورضا فى محيطه الإنسانى، ويظل مصغيًا لنداء المراقبة والمحاسبة فى محيطه

النفسى ، غير هياب من عواصف الحياة، وغير قنوط عند صدماتها .. ولا يتأتى لأية ثقافة فكرية أو حضارية إنسانية بكل وسائلها وتجاربها أن تصوغ مثل هذه الشخصية كما جاءت بها هذه التوجيهات الربانية من خلال هذه العبادات التى تزكى النفس الإنسانية .

والنفس التى لا تتزكى بهذه العبادات ، هى واحدة من اثنتين:

– إما أن يكون صاحبها غير مؤد لعبادته على أكمل وجه، وبما يجب أن يؤديها به من إخلاص لله تعالى ومن حرص على أركانها وآدابها وشروطها.

– وإما أنه غير مواظب عليها، ويؤديها مرة ويتركها أخرى، أو يؤديها أداء بعض الوقت وقضاء فى أوقات كثيرة.

وواضح أن الذى تتزكى نفسه بالعبادات، يعيش ـ فى دنياه ـ حياة طيبة آمنة، ويكون فى أخراه فى الدرجات العلا، فى جنات عدن، قال الله تعالى:

﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلا جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى﴾
[طه٧٥، ٧٦]

وفى الحديث الشريف: « الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس». [رواه أحمد والترمذى]

من كلام الإمام ابن القيم عن النفس
هل هناك فرق بينها وبين الروح ؟

❋❋❋

اختلف الناس فى ذلك، فمن قائل: مسماهما واحد وهو الجمهور، ومن قائل إنهما متغايران، ونحن نكشف سر المسألة بحول الله وقوته، فنقول: النفس تطلق على أمور:

أحدها: الروح، قال الجوهرى: النفس : الروح، يقال: خرجت نفسه.

والنفس الدم، يقال: سالت نفسه، وفى الحديث:

«ما لا نفس له سائلة لا ينجس الماء إذا مات فيه».

والنفس: الجسد، قال الشاعر:

نبئت أن بنى تميم أدخلوا

أبناءهم تامور نفس المنذر

والتامور: الدم.

والنفس: العين، يقال: أصابت فلانًا نفس أى عين.

قلت: ليس كما قال: بل النفس، هاهنا الروح، ونسبة الإضافة إلى العين توسع، لأنها تكون بواسطة النظر المصيب، والذى أصابه إنما هو نفس العائن كما تقدم.

قلت : والنفس فى القرآن تطلق على الذات بجملتها.

كقوله تعالى : ﴿ فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُم﴾ [النور ٦١] .

وقوله تعالى: :﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُم﴾ [النساء ٢٩] .

وقوله تعالى:﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ [النحل ١١١].

وقـوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر ٣٨] .

وتطلق على الروح وحدها كقوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر ٢٧] .

وقوله تعالى: ﴿ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُم﴾ [الأنعام ٩٣] .

وقوله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ [النازعات ٤٠] .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ [يوسف ٥٣] .

وأما الروح فلا تطلق على البدن لا بانفراده ولا مع النفس، وتطلق الـروح على القرآن الذى أوحاه الله إلى رسوله، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِـكَ أَوْحَيْنَـا إِلَيْـكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى ٥٢] .

وعلـى الوحـى الـذى يوحيـه إلى أنبيائـه ورسلـه، قـال تعـالى: ﴿رَفِيـعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَـوْمَ التَّلاَقِ﴾ [غافر ١٥] .

وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَّشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ [النحل٢]

وسمى ذلك روحًا لما يحصل به من الحياة النافعة، فإن الحياة بدونـه لا تنفع صاحبها ألبتة، بل حياة الحيوان البـهيم خـير منـها وأسـلم عاقبـة،

وسميت الروح روحًا، لأن بها من الحيــاة، وهــى مـن ذوات الـواو، ولهـذا يجمع على أرواح، قال الشاعر:

إذا هـبت الأرواح من نحو أرضكم

وجدت لمسـراها على كبدى بردًا

متى تخرج النفس .. ومتى تعود ؟

ومنها الروح والريحان والاستراحة، فسميت النفس روحًا لحصول الحياة بها، وسميت نفسًا، إما من الشــىء النفيـس لنفاسـتها وشـرفها، وإمـا مـن تنفس الشىء إذا خرج، فلكثرة خروجها ودخولها فى البدن سميت نفسًــا، ومنه: النفس بالتحريك، فإن العبد كلما نــام خرجـت منـه، فـإذا اسـتيقظ رجعت ، فإذا مات، خرجت خروجًا كليًا، فإذا دفن عادت إليه، فإذا سئل خرجت، فإذا بعث، رجعت إليه، فالفرق بين النفس والروح فرق بالصفــات لا فرق بالذات، وإنما سمى الدم نفسًا لأن خروجه الذى يكـون معـه المـوت يلازم خروج النفس، وأن الحياة لا تتم إلا به كما لا يتم إلا بالنفس، فلهذا قال:

تسيل على خـد الظباة نفوسنا

وليست على غير الظباة تسيل

ويقال: فاضت نفسه وخرجت نفسه وفارقت نفسه، كما يقال: خرجت روحه وفارقت. لكن الفيض: الاندلاع وهلة واحــدة، ومنـه الإفاضـة، وهــى الاندفاع بكثرة وسرعة، ولكن أفاض إذا دفع باختياره وإرادتــه، وفـاض إذا اندفع قسرًا وقهرًا، فالله سبحانه هو الذى يفيضها عند الموت فتفيض هى.

الـروح غـير الـنفـس

وقالت فرقة أخرى من أهل الحديث والفقه والتصوف:

الروح غير النفس، قال مقاتل بن سليمان: للإنسان حيـاة وروح ونفـس، فإذا نام خرجت نفسه التى يعقـل بـها الأشـياء، ولم تفـارق الجسـد، بـل تخرج كحبل ممتد له شعاع. فيرى الرؤيا بالنفس التى خرجت منه، وتبقى الحياة والروح فى الجسد فبه يتقلب ويتنفس، فإذا حرك رجعت إليه أسرع من طرفة عين، فإذا أراد الله عز وجل أن يميته فى المنام أمسك تلك النفس التى خرجت.

وقال أيضًا: إذا نام خرجـت نفسـه فصعـدت إلى فـوق فـإذا رأت الرؤيـا رجعت فأخبرت الروح، وتخبر الروح القلب. فيصبح يعلم أنه قد رأى كيت وكيت.

قال أبو عبد الله بن منده: ثم اختلفوا فى معرفة الروح والنفـس ، فقـال بعضهم: النفس طينية نارية، والروح نورانية روحانية.

وقالت طائفة، وهم أهـل الأثـر: إن الـروح غـير النفـس ، والنفـس غـير الروح، وقوام النفس بالروح والنفس صورة العبد، والهـوى والشـهوة والبـلاء معجون فيها، ولا عدو أعـدى لابـن آدم مـن نفســه ، فـالنفس لا تريـد إلا الدنيا ولا تحــب إلا إياهـا، والـروح تدعـو إلى الآخـرة، وتؤثرهـا ، وجعـل الهوى تبعًـا للنفـس، والشـيطان تبـع النفـس، والهـوى والملـك مـع العقـل

والروح. والله تعالى يمدهما بإلهامه وتوفيقه، وقال بعضهم: الأرواح من أمر الله أخفى حقيقتها وعلمها على الخلق.

وقال بعضهم: الأرواح نور من نور الله وحياة من حياة الله .ثم اختلفوا فى الأرواح هل تموت بموت الأبدان والأنفس أو لا تموت ؟ .

فقالت طائفة: الأرواح لا تموت ولا تبلى.

وقالت جماعة: الأرواح على صورة الخلق ، لها أيد وأرجل وأعين، وسمع وبصر ولسان.

وقالت طائفة: للمؤمن ثلاثة أرواح، وللمنافق والكافر روح واحدة.

وقال بعضهم: الأرواح روحانية خلقت من الملكوت فإذا صفت صعدت إلى الملكوت.

قلت: أما الروح التى تتوفى وتقبض فهى روح واحدة ، وهى النفس، وأما ما يؤيد الله به أولياءه من الروح فهى روح أخرى غير هذه الروح ، كما قال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْه ﴾ [المجادلة ٢٢] .

وكذلك الروح الذى أيد بها روح المسيح ابن مريم كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُس﴾ [المائدة ١١٠] .

وكذلك الروح التى يلقيها على من يشاء من عباده هى لغير الروح التى فى البدن، وأما القوى التى فى البدن فإنها تسمى أيضًا أرواحًا، فيقال: الروح الباصر، والروح السامع ، والروح الشام، فهذه الأرواح قوى مودعة

فى الأبدان تموت بموت الأبدان، وهى خير الروح التى لا تموت بموت البدن، ولا تبلى كما يبلى، ويطلق الروح على أخص من هذا كله، وهو قوة المعرفة بالله والإنابة إليه، ومحبته، وانبعاث الهمة إلى طلبه، وإرادته، ونسبة هذه إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن، فإذا فقدتها الروح كانت بمنزلة البدن إذا فقد روحه، وهى الروح التى يؤيد بها أهل ولايته وطاعته، ولهذا يقول الناس: فلان فيه روح، وفلان ما فيه روح، وهو قصبة فارغة، ونحو ذلك، فللعلم روح، وللإحسان روح، والناس متفاوتون فى هذه الأرواح أعظم تفاوت، فمنهم من تغلب عليه هذه الأرواح فيصير روحانيًا، ومنهم من يفقدها أو أكثرها فيصير أرضيًا بهيميًا، والله المستعان.

هل النفس واحدة أم ثلاث ؟

لقد وقع فى كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاث أنفس: نفس مطمئنة، ونفس لوامة، ونفس أمارة، وأن منهم من تغلب عليه هذه، ومنهم من تغلب الأخرى، ويحتجون على ذلك بقوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ [الفجر٢٧] وبقوله تعالى: ﴿لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة١،٢]

وبقوله تعالى: ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ [يوسف ٥٣] .

والتحقيق أنها نفس واحدة ولكن لها صفات.. فتسمى باعتبار كل صفة باسم، فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديتها ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه والرضى به والسكون إليه، فإن سمة محبته وخوفه ورجائه منها قطع النظر عن محبة غيره وخوفه ورجائه، فيستغنى بمحبته عن حب ما سواه. فالطمأنينة إلى الله سبحانه حقيقة ترد منه

سبحانه على قلب عبده تجمعه عليه وترد قلبه الشارد إليه ، حتى كأنه جالس بين يديه يسمع به ويبصر به، ويتحرك به ويبطش به، فتسرى تلك الطمأنينة فى نفسه وقلبه ومفاصله إلى خدمته والتقرب إليه، ولا يمكن حصول الطمأنينة الحقيقية إلا بالله وبذكره وكلامه الذى أنزله على رسوله. كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْـرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد ٢٨] .

فإن طمأنينة القلب، سكونه واستقراره بزوال القلق والانزعاج والاضطراب عنه، وهذا لا يتأتى إلا بالسكون إلى الله تعالى، وذكره ومراقبته، وأما ما عداه فالطمأنينة إليه وبه غرور والثقة به عجز، قضى الله سبحانه وتعالى قضاء لا مرد له، أن من اطمأن إلى شىء سواه أتاه القلق والانزعاج والاضطراب من جهته، كائنًا من كان، بل لو اطمأن العبد إلى علمه وحاله وعمله لسلبه وزايله، وقد جعل سبحانه نفوس المطمئنين إلى سواه أغراضًا لسهام البلاء، ليعلم عباده وأولياءه أن المتعلق بغيره مقطوع، والمطمئن إلى سواه عن مصالحه ومقاصده مصدود وممنوع.

وحقيقة الطمأنينة التى تصير بها النفس مطمئنة أن تطمئن فى باب معرفة أسمائه وصفاته ونعوت كماله إلى خبره الذى أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسله، فتتلقاه بالقبول والتسليم والإذعان وانشراح الصدر له ، وفرح القلب به .. فإنه معرف من معرفات الرب سبحانه إلى عبده على لسان رسوله ، فلا يزال القلب فى أعظم القلق والاضطراب فى هذا الباب ، حتى يخالط الإيمان بأسماء الرب تعالى وصفاته وتوحيده وعلوه على عرشه ، وتكلمه بالوحى بشاشة قلبه فينزل ذلك عليه نزول الماء

الزلال على القلب الملتهب بالعطش فيطمئن إليه ويسكن إليه، ويفرح به ويلين له قلبه ومفاصله، حتى كأنه شاهد الأمر كما أخبرت به الرسل ، بل يصير ذلك لقلبه بمنزلة رؤية الشمس فى الظهيرة لعينه ، فلو خالفه فى ذلك من بين شرق الأرض وغربها ، فلن يلتفت إلى خلافهم ، وقال إذا استوحش من الغربة . كان بإيمانه العميق آمنًا مطمئنًا، ولو كان جميع أهل الأرض يخالفه ، ما نقص ذلك من طمأنينته شيء .

فهذا أولى درجات الطمأنينة ، ثم لا يزال يقوى كلما سمع بآية متضمنة لصفة من صفات ربه ، وهذا أمر لا نهاية له ، فهذه الطمأنينة أصل أصول الإيمان التى قام عليها بناؤه، ثم يطمئن إلى خبره عما بعد الموت من أمور البرزخ، وما بعدها من أحوال القيامة ، حتى كأنه يشاهد ذلك كله عيانًا، وهذه حقيقة اليقين الذى وصف به سبحانه وتعالى أهل الإيمان ، حيث قال: ﴿وبالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة ٤] فلا يحصل الإيمان بالآخرة حتى يطمئن القلب إلى ما أخبر الله سبحانه به عنها ، طمأنينة إلى الأمور التى لا يشك فيها ولا يرتاب ، فهذا هو المؤمن حقًا باليوم الآخر ، كما فى حديث حارثة: «أصبحت مؤمنًا حقًا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ قال: عزفت نفسى عن الدنيا وأهلها وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزًا وإلى أهل الجنة يتزاورون فيها وأهل النار يعذبون فيها فقال صلى الله عليه وسلم : عبد نَوَّر الله قلبه » .

النفس اللوامة وأحوالها

وأما النفس اللوامة وهى التى أقسم بها سبحانه فى قوله: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة ٢] فاختلف فيها فقالت طائفة: هى التى لا تثبت على حال واحدة، أخذوا اللفظة من التلون وهو التردد، فهى كثيرة التقلب والتلون، وهى من أعظم آيات الله، فإنها مخلوق من مخلوقاته تتقلب وتتلون فى الساعة الواحدة، فضلاً عن اليوم والشهر والعام والعمر ألوانًا متلونة، فتذكر وتغفل، وتقبل، وتعرض، وتلطف، وتكثف، وتثبت، وتجفو، وتحب وتبغض، وتفرح وتحزن، وترضى وتغضب، وتطيع وتعصى، وتتقى وتفجر، إلى أضعاف أضعاف ذلك من حالاتها وتلونها، فهى تتلون كل وقت ألوانًا كثيرة فهذا قول.

وقالت طائفة: اللفظة مأخوذة من اللوم، ثم اختلفوا فقالت فرقة: هى نفس المؤمن، وهذا من صفاتها المجردة.

قال الحسن البصرى: إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه، دائمًا، يقول ما أردت بهذا؟ لم فعلت هذا؟ كان غير هذا أولى. ونحو هذا من الكلام.

وقال غيره: هى نفس المؤمن توقعه فى الذنب، ثم تلومه عليه، فهذا اللوم من الإيمان بخلاف الشقى، فإنه لا يلوم نفسه على ذنب بل يلومها وتلومه على فواته.

وقالت طائفة: بل هذا اللوم للنوعين، فإن كل أحد يلوم نفسه بَرًّا كان أو فاجرًا.

فالسعيد يلومها على ارتكاب معصية الله وترك طاعته، والشقى لا يلومها إلا على فوات حظها وهواها.

وقالت فرقة أخرى : هذا اللوم يوم القيامة ، فإن كل أحد يلـوم نفسـه ، فإن كان مسيئًا على إساءته وإن كان محسنًا على تقصـيره ، وهـذه الأقـوال كلها حق ولا تنافى بينها، فإن النفس موصوفـة بـهذا كلـه ولذلـك سميـت لوامة. لكن اللوامة نوعان : لوامة ملومة ، وهى النفس الجاهلة الظالمة التى يلومها الله سبحانه.

ولوامة غير ملومة ، وهى التى لا تزال تلوم صاحبـها علـى تقصـيره فـى طاعة الله ، مع بذله جهده . فهذه غير ملومة ، وأشرف النفوس من لامت نفسها فى طاعة الله واحتملت ملام اللائمين فى مرضاته، فلا تأخذها فيـه لومة لائم ، فهذه قد تخلصت من لوم الله ، وأما من رضيـت بأعمالهـا ولم تلم نفسها ولم تحتمل فى الله ملام اللوام فهى التى يلومها الله عز وجل.

النفـس الأمـارة وأحـوالها

وأما النفس الأمارة فهى المذمومة التى تأمر بكل سوء ، وهذا من طبيعتها إلا إذا وفقها الله وثبتها وأعانها، فما تخلص أحد من شر نفسه إلا بتوفيـق الله له، كما قال تعالى حاكيًا عن امرأة العزيز: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [**يوسف ٥٣**].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ **[النور ٢١]**

وقال تعالى لأكرم خلقه عليه وأحبهم إليه: ﴿وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴾ [**الإسراء ٧٤**] .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يعلمهم خطبـة الحاجـة: « الحمـد لله نحمده ونسـتعينه ونسـتغفره ونعـوذ بـالله مـن شـرور أنفسـنا ومـن سـيئات

أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضله فلا هادى له » فالشر كامن في النفس وهو يوجب سيئات الأعمال، فإن خلى الله بين العبد وبين نفسه هلك بين شرها وما تقتضيه من سيئات الأعمال فإن وفقه وأعانه نجاه من ذلك كله ، فنسأل الله العظيم أن يعيذنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.

وقد امتحن الله سبحانه الإنسان بهاتين النفسين الأمارة واللوامة ، كما أكرمه بالمطمئنة فهى نفس واحدة تكون أمارة ثم لوامة ، ثم مطمئنة وهى غاية كمالها وصلاحها ، وأيد المطمئنة بجنود عديدة ، فجعل الملك قرينها وصاحبها الذى يقومها ويسددها ويقذف فيها الحق ويرغبها فيه ويريها حسن صورته ويزجرها عن الباطل ويزهدها فيه ، ويريها قبح صورته وأمدها بما علمها من القرآن والأذكار وأعمال البر ، وجعل وفود الخيرات ومداد التوفيق بنياتها ، ويصل إليها من كل ناحية ، وكلما تلقتها بالقبول والشكر والحمد لله ورؤية أوليته فى ذلك كله ، ازداد مددها ، فتقوى على محاربة الأمارة، فمن جندها وهو سلطان عساكرها وملكها الإيمان واليقين ، فالجيوش الإسلامية كلها تحت لوائه ناظرة إليه إن ثبت ثبتت ، وإن انهزم ولت على أدبارها ، ثم أمراء هذا الجيش ومقدمو عساكره شعب الإيمان المتعلقة بالجوارح على اختلاف أنواعها كالصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ونصيحة الخلق والإحسان إليهم بأنواع الإحسان ، وشعبة الباطنية ، المتعلقة بالقلب كالإخلاص والتوكل والإنابة والتوبة والمراقبة والصبر والحلم والتواضع والمسكنة وامتلاء القلب من محبة الله ورسوله وتعظيم أوامر الله وحقوقه ، والغيرة لله وفى الله، والشجاعة والعفة والصدق والشفقة والرحمة ، وملاك ذلك كله الإخلاص والصدق ، فلا يتعب الصادق المخلص ، فقد أقيم على

الصراط المستقيم فيسار به وهو راقد ولا يتعب ، أما من حرم الصدق والإخلاص ، فقد قطعت عليه الطريق واستهوته الشياطين فى الأرض حيران ، فإن شاء فليعمل وإن شاء فليترك ، فلا يزيده عمله من الله إلا بعدًا.

وبالجملة فما كان لله وبالله فهو من جند النفس المطمئنة ، وأما النفس الأمارة فيجعل الشيطان قرينها وصاحبها الذى يلهيها فهو يعدها ويمنيها، ويقذف فيها بالباطل ويأمرها بالسوء ويزينه لها ويطيل فى الأمل ويريها الباطل فى صورة تقبلها وتستحسنها ويمدها بأنواع الإمداد الباطل من الأمانى الكاذبة والشهوات المهلكة، ويستعين عليها بهواها وإرادتها ، فحين يدخل عليها يدخل عليها كل مكروه ، فما استعان على النفوس بشىء هو أبلغ من هواها وإرادتها إليه.

وقد علم ذلك إخوانه من شياطين الإنس فلا يستعينون على الصورة الممنوعة منهم بشىء أبلغ من هواهم وإرادتهم ، فإذا أعيتهم صورة طلبوا بجهدهم ما تحبه وتهواه ، ثم طلبوا بجهدهم ما تحبه وتهواه ثم طلبوا بجهدهم تحصيله فاصطادوا به تلك الصورة ، فإذا فتحت لهم النفس باب الهوى دخلوا منه فجاسوا خلال الديار ، فعاثوا وأفسدوا وأفتكوا وغدروا وفعلوا ما يفعله العدو ببلاد عدوه إذا تحكم فيها فهدموا معالم الإيمان والقرآن والذكر والصلاة وخربوا المساجد وعمروا البيع والكنائس والحانات والمواخير ، وقصدوا إلى الملك فأسروه وسلبوه ملكه ونقلوه من عبادة الرحمن إلى عبادة البغايا والأوثان ، ومن عز الطاعة إلى ذل المعصية ومن السماع الرحمانى إلى السماع الشيطانى ، ولا يراعى حقوق الله وما أمره به ، إذا صار يرعى الخنازير ، وكيف يتجه منتصب لخدمة العزيز الرحيم إذا صار

منتصبًا لخدمة كل شيطان رجيم والمقصود أن الملك قرين النفس المطمئنة والشيطان قرين الأمارة.

وقد روى أبو الأحوص ، عن عطاء بن السائب عن مرة عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن للشيطان لمة يا بن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق . وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ، وليحمد الله ، ومن وجد الآخر فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم يقرأ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء﴾ [البقرة ٢٦٨] . وقد رواه عمرو عن عطاء بن السائب ، وزاد فيه عمرو قال: سمعنا فى هذا الحديث أنه كان يقال: « إذا أحس أحدكم من لمة الملك شيئًا فليحمد الله وليسأله من فضله ، وإذا أحس من لمة الشيطان شيئًا فليستغفر الله ويتعوذ من الشيطان » .

فالنفس المطمئنة والملك وجنده من الإيمان يقتضيان من النفس المطمئنة التوحيد والإحسان والبر والتقوى والصبر والتوكل والتوبة والإنابة والإقبال على الله وقصر الأمل والاستعداد للموت وما بعده، والشيطان وجنده من الكفر يقتضيان من النفس الأمارة ضد ذلك ، وقد سلط الله سبحانه الشيطان على كل ما ليس له ولم يرد به وجهه، ولا هو طاعة له وجعل ذلك إقطاعه فهو يستثيب النفس الأمارة على هذا العمل والإقطاع ، ويتغاضى أن تأخذ الأعمال من النفس المطمئنة فتجعلها قوة لها، فهى أحرص شىء على تخليص الأعمال من الشيطان ومن الأمارة لله ، فلو وصل منها عمل واحد كما ينبغى لنجا به العبد لكن أبت الأمارة والشيطان أن يدعا لها عملاً واحدًا يصل إلى الله .

كما قال بعض العارفين بالله : والله لو أعلم أن لى عملاً واحدًا وصل إلى الله لكنت أفرح بالموت من الغائب يقدم على أهله.

قال عبد الله بن عمر : لو أعلم أن الله تَقَبَّلَ منى سجدة واحدة ، لم يكن غائب أحب إلىَّ من الموت ، إنما يتقبل الله من المتقين.

النفس الأمارة فى مواجهة النفس المطمئنة

وقد انتصبت الأمارة فى مقابلة المطمئنة ، فكلما جاءت به تلك من خير ضاهتها هذه وجاءت من الشر بما يقابله حتى تفسده عليها، فإذا جاءت بالإيمان والتوحيد . جاءت هذه بما يقدح فى الإيمان من الشك والنفاق ، وما يقدح فى التوحيد من الشرك ومحبة غير الله وخوفه ورجائه ولا يرضى حتى يقدم محبة غيره وخوفه ورجائه ، فيكون ماله عندها هو المؤخر، وما للخلق هو المقدم ، وهذا حال أكثر هذا الخلق . وإذا جاءت تلك بتجريد المتابعة للرسول جاءت هذه بتحكيم آراء الرجال وأقوالهم على الوحى ، وأتت من الشبه المضلة بما يمنعها من كمال المتابعة وتحكم السنة ، وعدم الالتفات إلى آراء الرجال ، فتقوم الحرب بين هاتين النفسين ، والمنصور من نصره الله ، وإذا جاءت تلك بالإخلاص والصدق والتوكل والإنابة والمراقبة ، جاءت هذه بأضدادها وأخرجتها فى عدة قوالب، وتقسم بالله ما مرادها إلا الإحسان والتوفيق ، والله يعلم أنها كاذبة ، وما مرادها إلا مجرد حظها واتباع هواها والتفلت من سجن المتابعة والتحكيم والمحض للسنة إلى قضاء إرادتها وشهوتها وحظوظها ، ولعمر الله ما تخلصت إلا من قضاء المتابعة والتسليم إلى سجن الهوى والإدارة وضيقه وظلمته ووحشته ،

فهى مسجونة فى هذا العالم ، وفى البرزخ فى أضيق منه ، ويوم المعاد الثانى فى أضيق منهما.

ومن أعجب أمرها أنها تسحر العقل والقلب فتأتى إلى أشرف الأشياء وأفضلها وأجلها فتخرجه فى صورة مذمومة ، وأكثر الخلق صبيان العقول أطفال الأحلام لم يصلوا إلى حد الفصام الأول عن العوائد والمألوفات ، فضلاً عن البلوغ الذى يمر به العاقل البالغ بين خير الخيرين فيؤثره ، وشر الشرين فيتجنبه فتريه صورة تجريد التوحيد التى هى أبهى من صورة الشمس والقمر فى صورة التنقيص المذموم ، وهضم العظماء منازلهم وحطهم منها إلى مرتبة العبودية المحصنة ، والمسكنة والذل والفقر المحض، والذى لا ملكة لهم معه ولا إرادة ولا شفاعة ، إلا من بعد إذن الله ، فتريهم النفس الأمارة هذا القدر غاية تنقيصهم وهضمهم ، ونزول أقدارهم وعدم تمييزهم عن المساكين الفقراء فتنفر نفوسهم من تجريد التوحيد أشد النفار ، ويقولون: ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [سورة ص:٥]

وتريهم تجريد المتابعة للرسول وما جاء به وتقديمهم على آراء الرجال فى صورة تنقيص العلماء والرغبة عن أقوالهم ، وما فهموه عن الله ورسوله وأن هذا إساءة أدب عليهم وتقدم بين أيديهم ، وهو مفض إلى إساءة الظن بهم وأنهم قد فاتهم الصواب . وكيف لنا قوة أن نرد عليهم ونفوز ونحظى بالصواب دونهم فتنفر من ذلك أشد النفار وتجعل كلامهم هو الحكم الواجب الاتباع ، وكلام الرسول هو المتشابه الذى يعرض على أقوالهم فما وافقها قبلناه وما خالفها رددناه أو أولناه أو فوضناه ، وتقسم النفس الأمارة بالله إن أردنا إلا إحسانًا وتوفيقًا ، أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم.

الفصل الثانى

تهذيب الإسلام للنفس الإنسانية

إن تكوين الشخصية القويمة لا يستكمل ملامحه إلا بتزكية النفس وتنقية داخل الإنسان وأعماقه ، قبل مظهره الخارجى . والإنسان الذى يعجز عن إصلاح نفسه التى بين جنبيه هو أكثر عجزًا عن إصلاح نفوس الآخرين والتأثير فيهم .

وللنفس البشرية دوافعها فى السلوك وتأثيرها على الكيان الخارجى، ولها وساوسها المتحركة وهواجسها الشائكة التى تدفع إلى الانحراف والسوء والفحشاء والمنكر: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [**يوسف ٥٣**] .

وبالقرآن الكريم تتزكى النفوس ، فلا تعوقها الفتن ، ولا تعكر حياتها الضلالة فتنتهى بالهلاك ، وقد أمر الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام أن يذكر الناس بكتاب ربهم لئلا تبسل نفس وتهلك، فقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيع ﴾ [**الأنعام ٧٠**] .

ولا يأتى للنفوس تزكية فى غير البيئة الإسلامية الآمنة ، المطبقة لشريعة الله ، ففى رحابها تستقر النفس وتطمئن ، فلا ترتاع من أحد يمكر بها ، ولا ترتاب من نفوس من حولها ، وكم زعم البعض أن فى بعض البيئات التى توغلت فى المدنية المجردة عن الإسلام رقة فى المعاملة وملاطفة فى الأسلوب والمنظر فخدع فى النفوس وظن فيها الحسنى وليس الأمر كما زعم لأن صفاء النفس لا يتأتى من السطح الخارجى لحياة الناس

ومعاملاتهم ، وإنما مبعثه من داخل القلب وأعماق النفس الإنسانية ، ويتبع الإسلام تزكية النفس فى مسار الحياة فيدفعها إلى الخير ، ويعمل على ترقيتها من أمارة بالسوء ثم إلى لوامة ثم إلى نفس مطمئنة . لقد وضح القرآن حقيقة النفس البشرية فى ضعفها ، وكيف تستهويها الفتنة بمظهرها الخلاب: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف ٥٣] .

لكن عندما يصحو الضمير الدينى ويتحرك وازع الدين يخاف الإنسان مقام ربه ، وعندئذ ينهى نفسه الأمارة بالسوء فيحظى بالرحمة والجنة ، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات ٤٠،٤١] . وعندما ترتقى نفس الإنسان المسلم بالتزكية تلوم نفسها لا على ارتكاب الخطأ فحسب بل تلوم نفسها وإن اجتهدت فى الإحسان.

وبتلك النفس اللوامة ورد القسم فى القرآن فى قوله تعالى: ﴿لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة ١،٢] .

وعندما ترتقى النفس بالتزكية وتطمئن بإيمانها وسلوكها تنتهى عما نهى الله وتأتمر بأمر الله ، وحين تنتهى بها رحلة الحياة الدنيا تقبل على الله محبورة مستبشرة ، ويقال لها: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فادخلي فى عبادى وادخلي جنتي ﴾ [الفجر ٢٧-٣٠] .

ومن رحمة الله بعباده أنه وضح لهم طريق الخير ليتبعوه وطريق الشر ليتركوه وألهم كل نفس هذا الإحساس والبيان: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس ٧-١٠]

وفى مسار تزكية النفس يحرص الإسلام على تسليح النفس بذكر الله والوضوء والصلاة لينتصر على وساوس الشيطان وينفض غطاء الكسل وعوامل التثبيط .

ففيما رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب على كل عقدة ، عليك ليل طويل فارقد فإن استيقظ وذكر الله انحلت عقده فإن توضأ انحلت عقدة فإن صلى انحلت عقده فأصبح نشيطًا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان » .

إن الكسل ظاهرة غير صحية فى حياة المسلم ، لكن خبث النفس تحطيم للشخصية بمنظاره القاتم ، يتطلع إلى من حوله فيسىء بهم الظنون، وحيث تقع نظراته على محامدهم إذا بها فى عينه مثالب. إنه لا يرى فى الورد إلا الشوك ، وانطباعه عن دنيا الناس تأتى انعكاسًا لما يتردد صداه فى نفسه فهى عارية عن الخير والجمال فلا ترى فى الوجوه خيرًا وجمالاً ، هذه النفس التى عناها الشاعر بقوله:

وترى الشوك فى الورود وتعمى أن ترى فوقه الندى إكليلاً

والذى نفسه بغير جمال لا يرى فى الوجود شيئًا جميلاً

وما أحوج المجتمع الإنسانى إلى تزكية النفس! وإلى التضرع إلى الله أن يحفظها فى السر والعلانية فى اليقظة وفى النوم كما كان سلفنا يضرعون إلى الله ليحفظها.

روى الإمام مسلم عن عبد الله بن عمر أنه أمـر رجـلاً إذا أخـذ مضجعـه قال: اللهم خلقت نفسي وأنت توفاها ، لك مماتها ومحياها، إن أحييتـها فاحفظها وإن أمَتَّها فاغفر لها ، اللـهم إنـى أسـألك العافيـة. ومـا أروع أن تدعو بدعاء رسول الله صلى الله علي وسلم» اللهم إني أعوذ بك من العجـز والكسل والجبن والبخـل والهـرم وعـذاب القبر، اللـهم آت نفسـى تقواهـا وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها ، اللهم إنـى أعـوذ بـك مـن علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يسـتجاب لها »!.

مقاومة الإسلام للمخاوف والأوهام

حرص الإسلام على تحريـر الإنسـان المسـلم؛ لئـلا تسـتبد بـه الأبـاطيل والترهات، فليس لأحد أن يخضع إلا لله فهو صاحب الخلق والتدبير وهـو رب السموات والأرض وبيده ملكوت كل شيء، وهو سبحانه الـذى يجـير ولا يجار عليه ..

فكيف يذهب البعض إلى عبادة غيره؟ قال تعالى: ﴿قُل لِّمَـنِ الأَرْضُ وَمَـن فِيهَا إن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيقُولون لله قُل أفَلا تَذكَرُون قُـلْ مَـن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أفَلاَ تَتَّقُونَ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُـوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَـيَقُولُونَ للهِ قُـلْ فَـأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون ٨٤-٨٩] .

ولقد جاءت تعاليم الإسـلام فـى غايـة اليسـر ، وفـى منتـهى الوضـوح، وخلصت الإنسان من العـادات السيئة التـى تشـوه حياتـه الدينيـة ، كمـا

خلصته من الأباطيل والأوهـام التـى تراكمـت علـى العقـل البشـرى ضاربـة بجذورها فى النفس منذ أيام الجاهلية المظلمة، التى تخبط المجتمع الوثنى بين دروبها الضيقة وأحوالها الخانقة.

وحمل الإسـلام علـى الأوهـام والضـلالات وتتبعـها فـى كـل منعطفاتـها وزواياها ليحرر الضمير الإنسانى من كل الأساطير.

ونقى الإسلام عقيدة الإنسان المسلم مـن الكهانـة وغيرهـا مـن المعتقـدات الباطلة والعادات السيئة التى تسربت منها الخرافات بشكل فاضح؛ جعـل النفس الإنسانية ضعيفة لا تقوى على شىء، وتظل حائرة بين ضباب الوهم والخيال ، تقدم رجلاً وتؤخر أخرى.

وكما دعا الإسلام إلى تحرير النفـس الإنسـانية مـن الخضـوع لغـير الله، وتحريرها من العادات السيئة والتقاليد المرذولة والخرافات المتفشية ، فإنـه دعا المسـلم إلى تحريـر نفسـه مـن الخـوف والقلـق متتبعًـا أسـباب الخـوف ودواعيه ومجالاته ودوافعه ومبعث هذا الخوف قد يكون حرصًا على الحياة أو قلقًا على طلب الرزق أو طلبًا لجاه أو منصب فيظل شبح الخـوف يطـارد الإنسان فى خطى حائرة بين الإقدام ، والإحجام ، ويدفعه القلق إلى طلـب الرزق إلى الغش والرشوة والاختلاس ، فتسـتعبده المـادة ويدفعـه التطلـع إلى الجاه أو المنصب إلى المداهنة والزلفى إلى الناس.

ونقى الإسلام حياة الناس من كـل الأوهـام والخرافـات وأبـان أن طلـب الحياة أو الرزق أو المنصب ، لا يكون من مخلوق ، وإنما يكون من الخـالق الذى بيده ملكوت كل شىء، وهو على كل شىء قدير.

فأما بالنسبة للحياة ، فقد جعل الله لكل نفس ميقات أجل لا تستأخر عنه ساعة ، ولا تستقدم عنه أخرى، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلا﴾ [آل عمران ١٤٥] فإذا جاء ميعاد هذا الأجل فلا ينفعه حرص ، ولا يغنى عنه حذر ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء ٧٨]

وأما بالنسبة للرزق ، فقد تكفل الله به ، وهو الرزاق ذو القوة المتين، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود ٦]. والرزق محدد ، قدره الله وحده، وقد أقسم الله تعالى على أنه حق واقع حيث قال سبحانه: ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات ٢٢-٢٣]

وناهض الإسلام المزاعم الباطلة كاعتقاد أن للمرض عدوى بطبعه من غير فعل الله، وكالطيرة حيث كانوا ينفرون الطيور والظباء، فإن اتجهت يمينًا مضوا فى حوائجهم ، وإذا اتجهت يسارًا رجعوا وتشاءموا ، ومن ذلك تأخيرهم تحريم المحرم إلى صفر وهو النسيء، ورفض الإسلام كل ذلك ، قال عليه الصلاة والسلام: « لا عدوى ولا طيرة ولا صفر ولا هامة»

[رواه مسلم]

كما طهر الإسلام العقيدة من الكهانة، وما يشبهها - حديثًا - كضرب الحصى والرمل وقراءة الفنجان وغير ذلك من الاعتقادات الباطلة.

وقد وضح الله تعالى أنه بيده وحده الأمر كله من خير أو شر ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِه﴾

[يونس١٠٧]

وإذا أراد الله نصرة إنسان فلا يمكن أن يغلب وإن أراد خذلانه فلا يتأتى لأحد أن ينصره ﴿إِن يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران ١٦٠] هذا وإن حب الدنيا، والتعلق بأذيالها والخوف على الحياة أو الرزق ، هذه الأمور تؤدى بالإنسان إلى الضعف وضياع الشخصية ، وقد نَبَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك حين قال: « يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: أومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن فى قلوبكم الوهن. فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت«. [رواه أحمد وأبو داود].

تهذيب الإسلام للنفس الإنسانية

من أهم الملامح الواضحة فى حياة المجتمع المسلم.. أنه يعتنق الحق ويسير على ضوئه ويعمل فى دائرته. دون أن يكون هناك أى تأثير خارجى عليه ، لأنه يؤمن بأن جزاءه منوط بعمله فإحسانه لنفسه، وإساءته لها.

وقد غرس الإسلام فى نفوس الأفراد والجماعات أصول الحق ليتبعوها ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُم﴾ [سورة الإسراء ٧] .

وأنار القرآن الكريم الطريق أمام المسلم ، مبينًا له أنه وحده الذى ينال مثوبة هدايته، وأنه وحده الذى ينال جزاء ضلالته فلا ينجى اهتداؤه غيره، ولا يردى ضلاله سواه، وكل نفس وما حملت من وزرها، فلا تحمل وزر نفس أخرى فلكل استقلاله وجزاؤه على حدة ، قال الله سبحانه: ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء ١٥]

وقد نعى القرآن على أولئك الذين وقعوا أسرى العادة والألف تجافيهم عن الحق ، وضرب مثلهم بمن ينادى على حيوان يسمع الصوت ولا يفهم له معنى فهم فى انهماكه فى التقليد الأعمى ووقوعهم فريسة التبعية البلهاء كمثل الصم البكم .

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾

[البقرة ١٧٠، ١٧١]

وهذا الصنف من الناس لم يعط نفسه استقلالها ولم يمنحها حريتها فى البحث عن الحق ، وإنما حبسها بين أسوار التقاليد الموروثة ، توثقها العادات البالية وتستهن كرامتها وإنسانيتها ، وقد تابع الإسلام نفسية المسلم فى سلوكها بالتقويم والتهذيب لئلا تتأرجح بين مد الحياة وجزرها فتتدهور قواها المعنوية تابعة كل ناعق ومنادية كل إنسان ، أنا معك محسنًا كان أو ظالمًا . روى الإمام الترمذى بسنده عن حذيفة قال: قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تكونوا إمعة، تقولون : إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وَطِّنوا أنفسكم، إن حسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا» . **[رواه الترمذى]**

فإذا كان الله تعالى قد أعد المسلم إعدادًا حقًا ، وهيأه لأسباب الحق والفلاح، بما ألهمه من رؤية واضحة للخير حتى يتبعه ، وللشر حتى ينأى عنه ، فليس للمسلم أن يكون إمعة ، ولم تعد له حجة فى تعطيل ما أودعه الله فى حسه ووجدانه.

فكيف به يقف على مفترق الطرق يميل مع رياح الحياة حيث تميل، لقد سوى الحق النفس وألهمها فجورها وتقواها. قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس٨، ١٠] وفى استقلال النفس الإنسانية حماية لمقومات الحق والخير التى أودعها الله فى الإنسان.

فلا يتأثر بالعوامل الخارجية ولا بالمؤثرات المحيطة به ، فإذا كان قاضيًا أو شاهدًا أو مدرسًا أو قائمًا بالإصلاح بين الناس أو مقومًا لأعمال البعض أو نحو ذلك من مسالك الحياة التى يرتادها فإن عليه أن ينظر إلى الحق بغض النظر عن أى عامل آخر أو أى مؤثر خارجى.

فإذا قام لحكم بين الناس أو القضاء فيهم أو طلب منه أداء شهادة بالحق أو فصل فى خصومة فعليه أن يتحرى جانب الحق والصواب فلا تؤثر عليه صلة قرابة أو نسب أو غير ذلك ، قال الله تعالى : ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [الأنعام ١٥٢]

وكما دعا الإسلام إلى المحافظة على قول العدل دون تـأثر بصلـة القرابـة أو ما يدعو إلى الانحياز فكذلك حذر مـن أن تكـون الكراهيـة والبغضـاء مـن دواعى الانحراف عن الحق والعدل، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّـهَا الَّذِيـنَ آمَنُـوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُـمْ شَنَآنُ قَـوْمٍ عَلَـى أَلاَّ تَعْدِلُـوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة ٨]

وإن السلوك الإسلامى يتنافى مع الظلم ، فيقيم المسـلم العـدل ولـو علـى نفسه أو أقرب الناس إليه ، ويتنـافى مـع البـاطل فيقـول الحـق ولـو علـى نفسه، ويعدل مع العدو كما يعدل مع القريـب والحبيـب فـهو لا تحكمـه تبعية تهدم شخصيته، ولا يجور على عقيدته الهوى ولا تتسـرب المحابـاة إلى داخله.





الفصل الثالث

النفـــس
فى القرآن الكريم

لقد تكرر ذكر النفس فى القرآن الكريم مرات كثيرة ، وهذا يدل على اهتمام القرآن بالنفس الإنسانية وعنايته بها أيما عناية ، فالإنسان بدون نفس لا وزن له ولا قيمة ، كما قال الشاعر:

أقبل على النفس واستكمل فضائلها

فأنت بالنفس لا بالروح إنسان

واهتمام الإنسان بنفسه ، ينبع من داخله وخارجه لأن الاهتمام بتزكية النفس وتنقيتها أمر له أهميته ، ولأهمية تزكية النفس، كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يدعو بهذا الدعاء طالبًا تزكية نفسه قائلاً: « اللهم آت نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها».

ولنلق السمع والقلب إلى حديث القرآن الكريم عن النفس الإنسانية.. ونرى القرآن الكريم يبين أنه يجب على الإنسان ألا ينسى نفسه من طاعة الله تعالى، وألا يحرمها من البر ، فإنه حين يحرم نفسه من البر بينما يدعو الغير إليه كأنه لا يعقل الحقيقة ، ولا يتدبر الأصلح، قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة ٤٤] .

كما يوجه القرآن الكريم أتباع الإسلام ، ويأمرهم بالخوف من يوم القيامة، حيث لا تجزى نفس عن نفس شيئًا ولا يقبل منها شفاعة، وأن

الواجب على الإنسان أن يصون نفسه من الشر ، وأن يتقى ربه ، فقال الله سبحانه : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾ [البقرة ٢٨١] .

وقال سبحانه : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [البقرة ٤٨] .

كما يرشد القرآن الكريم النفس الإنسانية إلى توحيد الله تعالى ويوضح أن عبادة غير الله فيها ظلم للنفس ، ويأمر القرآن بالتوبة الحقيقية التى يجهد الإنسان فيها نفسه ، ولقد وضح القرآن الكريم أن ما نقدمه لأنفسنا من خير نجده عند الله ، فيأمر الله تعالى بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة موضحًا أن ما نقدمه من خير في دنيانا ، نجد ثوابه فى أخرانا ، فيقول جل شانه :

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة ١١٠]

ويمضى بنا حديث القرآن الكريم عن النفس الإنسانية موضحًا أن أية نفس لا تجزى عن غيرها شيئًا ولا يقبل منها عدل ، ولا تنفعها شفاعة ، وذلك فى يوم القيامة ، حيث لا تنفع كل نفس إلا ما قدمته فى دنياها إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر ، فقال سبحانه :

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [البقرة ١٢٣] .

ثم ينتقل بنا التوجيه القرآنى إلى مجال آخر ، حيث يبتلى الله جلت حكمته بنى آدم بشىء من الخوف والجوع ونقص فى الأموال والأنفس والثمرات حتى يظهر المؤمن الصادق فى إيمانه ، الذى يكون راضيًا بقضاء الله وقدره ، ويكون صابرًا على ما يلقاه فى حياته الدنيا لأنها دار ابتلاء

ودار اختبار، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة ١٥٥] .

كما يوضح الهدى القرآنى أن الله تعالى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، ويعلم ما تبدون وما تكتمون ويعلم ما فى نفوس العباد ، ولذا وجب عليهم أن يحذروه ، فقال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة ٢٣٥]

لكل نفس ما كسبت

ويأمر القرآن الكريم بأن نتقى هذا اليوم الذى يحاسب فيه كل إنسان على ما قدمه فى دنياه إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ، وفى هذا اليوم يوفى رب العزة سبحانه وتعالى كل نفس ما تستحقه فلا ظلم على العباد ، قال سبحانه :

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة ٢٨١].

كما يقرر البيان القرآنى الحكيم حقيقة هامة، وهى أن كل شىء فى السماوات أو فى الأرض ، إنما هو مخلوق لرب العالمين، ويملكه خالقه سبحانه ، وأن الله تعالى يعلم كل ما يظهره الناس وكل ما يخفونه ويحاسبهم عليه ، فكل ما فى أنفسنا لا يخفى على علام الغيوب، كما قال تعالى: ﴿للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَّشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة ٢٨٤]

ومن رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده أنه جلت حكمته لا يكلفكم ما لا طاقة لهم به ، وكلفهم بما يستطيعون ..

قال تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة٢٨٦] .

﴿فَكَيْفَ إذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران ٢٥] .

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾

[آل عمران٣٠]

وتوضح آيات الكتاب العزيز أن الإنسان حين يفعل الفاحشة أو يظلم نفسه، ثم يذكر ربه ويستغفره فإن رب العزة سبحانه يقبل توبته، قال سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ إذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

[آل عمران١٣٥]

النفس بين الحياة والموت

إن لكل نفس ميقات أجل لا تستأخر عنه ساعة ولا تستقدم عنه أخرى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾

[الأعراف ٣٤]

وللنفس الإنسانية أجلها المحدود ، ورزقها المعدود ، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلا﴾ [آل عمران ١٤٥] .

وقال جلت قدرته : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران ١٨٥] .

وضح سبحانه وتعالى أن أى إنسان فى الوجود له أجل محدد لا يحيد عنه. وأن لكل أمة ميقات أجل، فقال سبحانه:

﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس ٤٩] .

فالوقت الذى حدده الله جلت قدرته لكل نفس تموت فيه فلا تتأخر عن هذا الموعد ولا تتقدم ، وهذا يدفع الإنسان المؤمن بهذا ألا يكون جبانًا ولا خائفًا بل يقدم على الجهاد بشجاعة وإقدام دون تهيب أو خوف.

قال تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون ١١] . ولا أحد يعلم بأى أرض تذهب نفسه فتموت ، ولكن الله وحده هو الذى تكفل بذلك. ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان ٣٤] .

وبيَّن سبحانه أنه كتب الموت على جميع النفوس فلا أحد يخلد فى الدنيا ، فقال جل شانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾
[العنكبوت ٥٧]

وقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء ٣٥] .

النفس والدلالة على قدرة الله تعالى

إن النفس تحمل أكبر دلالة على قدرة الله الواحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد ، فصاحب النفس أيا كانت مكانته لا يملك لها نفعًا ولا ضرًا، قال الله تعالى:

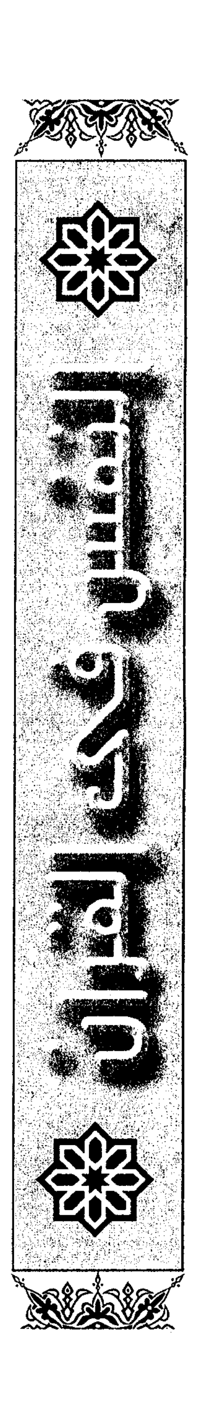
﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لاَ يَمْلِكُون لأَنْفسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّور ﴾ [الرعد ١٦] .

والمتتبع لحديث القرآن الكريم عن النفس الإنسانية يرى أنها من أكبر الدلائل على قدرة إله خلق فسوى وقدر فهدى ، قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل ٧٢] .

ومن توجيه القرآن الكريم للعقل البشرى حتى يتحرى دلائل القدرة الإلهية فى خلق النفس الإنسانية ، وإن رب العزة سبحانه وتعالى سيطلع العقل البشرى ويرى الناس آياته فى الآفاق وفى أنفسهم، قال جل شأنه:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت ٥٣] .

وقال سبحانه: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾
[الشورى ١١]



الفصل الرابع

سمات النفس
وآدابهـــا

حق الحياة بالنسبة للإنسان أغلى ما يكون، إذ إن الحياة منحة إلهية أعطيت للإنسان ، ليقوم برسالته على ظهر الأرض وليؤدى رسالته فى الحياة إيمانًا وعملاً ، وعبادة الله الخالق الرزاق المحيى المميت، الذى بيده ملكوت السموات والأرض وهو على كل شىء قدير.

وقد حدد الإسلام مهمة الإنسان فى الحياة ورسالته فيها ، باستخلافه فى الأرض وقيامه بتوحيد خالقه ورازقه وعبادته وحده لا شريك له وشكرًا لله على آلائه ونعمائه وهو سبحانه الغنى الحميد، قال تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [**الذاريات ٥٦-٥٨**] .

إذن فلم يخلق الله عباده عبثًا - حاشا لله - وليست حياة الناس من السهولة بمكان بحيث يتخلصون منها أو يعتدون على نفوس غيرهم، فإن الحياة والموت بيد الله المحيى المميت.

فى خطبة الوداع :

وأكد الإسلام حرمة النفس وحقها فى الحياة ووضح رسول الله صلوات الله وسلامة عليه هذه الحقيقة فى خطبة الوداع، إذ يقول: « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا .. ألا هل بلغت اللهم فاشهد ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه ».

من أجل هذا نجد أن الإسلام قد حرم كل ألوان الاعتداء على حق الحياة بأية صورة وعلى أى وضع كان هذا الاعتداء والظلم .

فحرم قتل الأولاد الصغار ، وحرم وأد البنات كما كان في الجاهلية ، وأنكر عليهم تلك الوحشية الظالمة : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل ٥٨-٥٩] .

وقال سبحانه : ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير٨-٩] .

وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء ٣١] .

كما حرم اعتداء الإنسان على نفسه كظاهرة الانتحار، قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء ٢٩] .

ولمرتكب هذا الجرم عقابه فى الآخرة من نوع ذنبه وجريمته فى الدنيا فإن قتل نفسه بسم أو حديدة أو تردى من جبل فهو على ذلك فى النار.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تردى من جبل فقتل نفسه فهو فى نار جهنم يتردى فيها خالدًا مخلدًا فيها أبدًا. ومن تحسى سمًا فقتل نفسه فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا ، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يتوجأ بها فى نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا ».

تحـريم قـتل الغـير:

كما حرم الإسلام قتل الغير بغـير حـق وتوعـد عليـه، فـالقتل مـن أكـبر الكبائر وأخطر الجرائم وأشدها على الأفراد والجماعات ، إنـها جريمـة إذا ظهرت فى مجتمع أو تفشت فى بيئة ، نشرت الرعب والفزع وقضت على الأمن والاستقرار وأشاعت الأحزان والبغضاء، وقضت على الروابط الإنسانية ورملت النساء ويتمت الأطفال، لهذا أنزل الله تعالى فى شأن القـاتل وعيـدًا شديدًا ، قال سبحانه : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيـهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء ٩٣] .

وقال سبحانه :

﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام١٥١] ، وهذا الحق فسرته السنة الشريفة ، قال صلوات الله وسلامه عليه : « لا يحل دم امـرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنـى رسـول الله إلا بـإحدى ثـلاث : الثيـب الزانى ، والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة «، رواه البخارى، ومسلم.

القصـاص فـى الشـريعة :

ولما كان فى القتل عدوان على النفس بغير حق للنـوع الإنسـانى وإفسـاد للمجتمع وقضاء على عضو من أعضائه وإهدار لحق الحياة وهو أغلـى شـىء عليه شرع القصاص زجرًا للماس وجزاء على الاعتداء على النفـس فـهو مـن أعظم الجنايات بعد الشرك بالله ، لهذا كان القصاص ليكف الجانى وتسلم الحياة من العدوان وصدق الله إذ يقول :

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة ١٧٩]

وحين تحدث القرآن عن أول جريمة قتل على ظهر الأرض فى قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾

[المائدة ٢٧]

حين تحدث بهذا النبأ كشف عن طبيعة العدوان الكامنة فى النفوس الشريرة والعدوان الصارخ منها وكشف عن الجريمة المنكرة التى تثير الضمير الإنسانى والشعور الجارف الحار والحاجة الملحة إلى قصاص عادل « يصون حق النفس » فمن أجل هذه النماذج الشريرة والعدوان الصارخ على الأبرياء، كان قتل النفس الواحدة حين لا يكون قصاص ولا دفاع عنها ، يمثل قتل جميع الناس لأنها واحدة من نفوس البشر جميعًا ، تشترك هى وغيرها فى حق الحياة وكان إبقاؤها حية والدفاع عن حقها فى الحياة أو بالقصاص ، إذا اعتدى عليها يمثل إحياء للنفوس جميعًا، ففى صيانة حياتها صيانة لحق الحياة الذى يشترك فيه الناس جميعًا ، فقال تعالى تعقيبًا على نبأ ابنى آدم : ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة ٣٢] .

فـى القـصاص حـياة :

وقد بيّن الله تعالى أن فى القصاص حياة وهذا هو وجه الحكمة فيه، قال سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة ١٧٩] . ذلك من وجهين:

الأول : أن فيه الحياة بطريقة الزجر فإن الإنسان الذى يقصد قتل إنسان آخر إذا فكر فى عاقبة أمره ، وما يلحقه من جريمته ، وأنه إذا قتله قتل به انزجر عن قتله فكان حياة لهما، لذا فإن الإنسان الذى تحدثه نفسه بهذه الجريمة ، حين يعلم أن حياته ثمن لجريمته أو أنه إذا قطع أو أتلف عضوًا ألحق به مثل ذلك ، فلا شك أنه يفكر مرات قبل الإقدام على مثل هذه الجريمة مما يجعله يكف عما يريده ، فتكون فيه حياة لمن يريد الاعتداء عليه وحياة له ، وليس الأمر كذلك حين يعلم أن جزاءه السجن مثلاً ، إذ أن إلحاقه عقوبة فى البدن مثلاً قطعًا أو تشويهًا فى الخلقة شيء غير آلام السجن.

الثانى : أن فى القصاص دفعًا لسبب الهلاك ، فإن القاتل ـ بغير حق ـ يصير حربًا لا هوادة فيها على أولياء القتيل لإحساسه بأنهم يلاحقونه لما ارتكبه، فهو يخشى على أنفسهم منهم . فيقصد حربهم ويتمنى إفناءهم ليزيل شبح الخوف الذى يلاحقه ويتابعه والشرع قد مكنهم من قتله قصاصًا لدفع شره عن أنفسهم.

وفى القصاص إطفاء لثورات القلوب المشتعلة بالسخط والكراهية ، قضاء على حزازت النفوس ، التى يقودها الغضب والحمية إلى ظاهرة الثأر ذات العواقب الوخيمة، ظاهرة الثأر التى تحرك أهل القتيل لتلمس كل ذريعة لإرواء أحقادهم ، وتحين الفرصة لإهدار الدماء التى لا تقتصر على القاتل

وحده أحيانًا بل تسيل الدماء على مذابح الأضغان العائلية وبين الحين والحين يهدر دم من هنا ودم من هناك.

لهذا كله شرع القصاص فكان فيه حياة بكل ما تتسع له معانى الحياة، حياة لمن تحدثه نفسه بالقتل فكيف عنه حين يعلم مصيره وفيه حياة لمن كان سيقع عليه القتل، وفيه حياة للعائلات والأفراد والجماعات بسد باب الثأر والعدوان.. ففى القصاص شفاء لنفوس أهل القتيل من الحقد والرغبة فى الثأر.

الاعتدال بين الحياة المادية والروحية

الإسلام هو دين اليسر والسماحة ، تضمنت تعاليمه القويمة ومبادئه السمحة ما فيه سعادة الناس دنيا وأخرى . وهو دين ينظم العلاقات القائمة بين البدن والنفس ، أو بين متطلبات الجسد وبين الجانب الروحى فى الإنسان.

ففى كل إنسان جانبان أحدهما مادى يتطلب الطعام والشراب والملبس والمسكن والزواج وما إلى ذلك مما جرت عليه سنة الحياة.

والجانب الآخر روحى يتطلب صقل النفس وتهذيب الروح، والاتجاه إلى الله يهذب النفس وينقيها ويصل بها إلى مرتبة التقوى، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة ١٨٣] . وغير ذلك من العبادات التى شرعها الإسلام وغير ذلك من الطيبات التى أباحها الإسلام للإنسان حتى يتواءم نظام البدن والروح ولا يحدث هناك تفرقة أو انفصال بينهما.

والغلو فى أحد الجانبين خروج عن سواء السبيل، والتقصير فى أحد الجانبين تضييع لحقوق يجب أن تراعى ، وإهمال لأوامر لها أهميتها ومنزلتها .. ومن هنا كان نداء الإسلام بين المادة والروح معتدًلا وقائمًا على أساس تنظيم العلاقة بين البدن والروح ، وإذا استقام الأمر وانتظمت الحال انتظمت العلاقات الأخرى وأخذ الإنسان طريقه إلى ربه سبحانه وتعالى فى اعتدال لا عوج فيه ، وفى انتظام لا غلو فيه ولا تقصير، فلا رهبانية فى الإسلام ولا مشقة أو تعب يصيب البدن ، ولكنها التشريعات الصحيحة التى أبطلت ما كان عليه البعض من رهبانية وما حاوله البعض من عزل الدين عن الحياة، وعندئذ تضل الحياة فإذا عزل الدين عن الحياة ضلت طريقها وتخبطت فى شكوك وأوهام ، فالدين بمبادئه ونظمه وبتعاليمه وقيمه يضىء للحياة طريقها ويبعث فى جوانبها الحياة والأمل ويجعلها دائمة موصولة بالخير الدائم الذى لا ينقطع وبالفضل المستمر الذى لا يتوقف ، وعن تلك الرهبانية التى لم يرعها أهلها تحدث القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [**الحديد ٢٧**] .

وفى السنة الشريفة تحذير من تلك الرهبانية وترغيب فى إعطاء الجسم حقه من الرحمة ومن طيبات الحياة، عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن نفرًا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم سألوا عن عمله فى السر فقال بعضهم : لا أتزوج النساء ، وقال بعضهم : لا آكل الطعام، وقال بعضهم : لا أنام على الفراش. فبلغ النبى صلى الله عليه وسلم ذلك فحمد الله

وأثنى عليه وقال : ما بال أقوام قالوا : كذا وكذا؟ ولكنى أصلى وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى . وقال الله تعالى : ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص ٧٧] .

والإسلام لا يحرم التمتع بالطيبات وينادى بعمارة الحياة بالمال والولد ولكن على شرط أن تكون قائمة على أسس من الفضائل والمثل التى نادى بها، والإسلام لا يحرم طيبات الحياة ولكن ينادى بأن تشرق بالإيثار والبذل والتضحية والإخلاص والتعاون والتساند على البر والتقوى، قال الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف ٤٦] . وبيّن الله سبحانه أنه لم يحرم زينته التى أخرجها لعباده ولا الطيبات من الرزق فقال جل شأنه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف ٣٢] .

وأما محاربة الإسلام للمادية الطاغية البحتة فذلك لأنها نأت عن القيم الرفيعة والآداب العالية والمثل الحية وأصبح هؤلاء الماديون المغالون يمثلون نشاطًا جامدًا خاليًا من الروح والمعنى بعيدًا عن المبادئ السامية وأصبح هؤلاء الماديون يمثلون حربًا على المعانى الإنسانية وعلى الفضائل الكريمة .

إن هؤلاء الماديين قد ضل سعيهم فى الحياة ويزعمون أنهم يفعلون فعلاً حسنًا ويقومون بإصلاح فى الحياة ، لقد انطبق عليهم قول الله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف ١٠٤] .

وأما السائرون على نهج الإسلام فى اعتداله بين الطرفين بدون إفراط أو تفريط ومن غير غلو ولا تقصير .. فإن الله سبحانه وتعالى يزيدهم هدى على هداهم . قال سبحانه : ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ [مريم ٧٦] . تلك حقيقة قرآنية لا يرتاب فيها امرؤ معه عقله فالمهتدون السائدون على الحياة هم الذين يزيدهم الله هدى وبهم يشرق المجتمع الإسلامى بالمعانى النبيلة الفاضلة ، والذين لا تشدهم الحياة الدنيا ولا تجذبهم بزخارفها وهم الذين فطنوا لدورهم فى الحياة ومهمتهم السامية فى المجتمع الإنسانى ومن أجل ذلك فهم حريصون على أن يتمثلوا مبادئ الحق. وأن يرتادوا سبل الخير والإصلاح، وهم بهذا كله جديرون بأن يمكن الله تعالى لهم فى الأرض ، وقد رسم القرآن الكريم صورة مشرقة ووضح ركائز التمكين فى الأرض وهى تتركز فى المبادئ الآتية :

أولاً : توثيق الصلة بالله سبحانه وتعالى ، بالقيام بأداء أوامره واجتناب نواهيه ، والإعلان عن ذلك إنما يتمثل فى القيام بالصلاة التى هى عنوان الطاعة لله سبحانه وتعالى ، فالصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين ، وهى تكف صاحبها عن الفحشاء والمنكر كما قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [العنكبوت ٤٥] وهى الصلة الوثيقة بين العبد وخالقه الكبير المتعال.

ثانيًا : ربط الصلة بالمجتمع ونشر وسائل التكافل الاجتماعى تأكيدًا وتنمية للعلاقات الإنسانية الفاضلة بين الإنسان وأخيه الإنسان وعلى قمة هذه العلاقات أداء الزكاة.

ثالثًا : المهمة الكبرى التى تتطلب الغيرة من كل مسلم على دينه ودعوة الغير إلى الرشد والخير بالحكمة والموعظة الحسنة والعمل على نشر فضائل الإسلام ومبادئه عن طريق الدعوة إلى الله ومحاربة المنكر ومقاومة الشر والفساد أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج ٤١] .

إن ركائز التمكين فى الأرض تعنى القيام بواجب الإنسان المسلم تجاه خالقه سبحانه وتعالى وتجاه نفسه ، وتجاه المجتمع الذى يعيش فيه ، فينبغى عليه أن يكون حريصًا على نشر الفضائل ومقاومة المنكر .

كما يجب على كل مسلم أن يدرك أهمية الوقوف عند معالم الحق والخير بحيث لا يميل ولا يحيد ولا ينحرف يمنة أو يسرة.

كما يجب عليه الوقوف فى مواجهة التيارات المادية الجارفة التى تشكلت بأشكال مختلفة وتسمت بأسماء متباينة متخذة بعض المذاهب الفاسدة وبعض النظريات الوافدة مذهبًا وطريقًا ، وفى هذا تصنيع للقيم وحرب للسلام فيجب الوقوف فى وجه تلك التيارات من شيوعية وقاديانية وبهائية، وغير ذلك من المذاهب الهدامة .

ومقاومة هذه التيارات الوافدة من أهم ركائز التمكين فى الأرض، لأنه باب واسع من أبواب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى جعله الله سبحانه وتعالى من أهم دعائم خيرية هذه الأمة فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران ١١٠] .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان ».

رد بعض الشبهات :

وقد أثار أعداء الإسلام وخصومه بعض الشبهات يحاولون أن يتهموا الإسلام بأنه مادى وبنقص الناحية الروحية فيه، وهى بدون شك شبهة واهية لا أساس لها من الصحة، فإن التشريع الإسلامى جاء وافيًا بحاجات البدن والروح وبتنظيم الجانبين والاعتدال بينهما بلا إفراط أو تفريط ، ومن المعلوم أن الإنسان يتكون من عنصرين أحدهما مادى والآخر روحى وقد توسط الإسلام بين الطرفين والتوسط هو الفضيلة المثلى، وقد وجه القرآن الكريم جميع المسلمين إلى مراعاة مطالب الدنيا والآخرة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ أُولَـئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [**البقرة ٢٠٠ – ٢٠٢**] . ونهى القرآن عن تحريم الطيبات حفاظًا على جانب الاعتدال بين المادة والروح كما حرم الاعتداء ومجاوزة الحد فى ذلك ، بل على الإنسان أن يأكل مما رزقه الله من الحلال الطيب على أساس من التقوى والإيمان.

قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ﴾ [**المائدة ٨٧**] ويركز الإسلام بتوجيهه للمسلمين محذرًا لهم أن تفرقهم الحياة الدنيا بماديتها ومباهجها وأن الأموال والأولاد فتنة وعند الله عظيم الأجر للمخلصين فقال سبحانه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [**الأنفال ٢٨**] .

وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّـهَوَاتِ مِـنَ النِّسَـاءِ وَالْبَنِـينَ وَالْقَنَاطِـيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَـامِ وَالْحَـرْثِ ذَلِكَ مَتَـاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِـن تَحْتِـهَا الأَنْـهَارُ خَـالِدِينَ فِيـهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَـهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران ١٤،١٥] .

وقد وضح الإسلام أهمية طلب الآخرة وضرورة العمل لهـا ، فمـن كـانت الآخرة همه وعمل لهـا جمـع الله لـه مـا يريـد وجعلـه غنـى النفس غنيًـا بالإيمان وتأتيه الدنيا منقادة راغمة ، وأما الذى ينكب على المـادة يجمعـها ويجعل الدنيا همه فإن الله يجعل الفقر بين عينيه ، ومـهما واصـل التعـب والكد فى سبيلها فإنه لا ينال منها إلا ما قدره الله سبحانه وتعالى.

عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : قـال رسـول الله صلـى الله عليـه وسلم: « من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره وجعل فقـره بـين عينيـه ولم يؤته من الدنيا إلا ما كتب له ومن كانت الآخـرة همـه جمـع الله أمـره وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة » .. وحياة السـلف حافلـة بالإيثار والبذل والتضحية والمعروف حتى وإن ترتب على ذلك بذل كـل مـا يملكون . نعم الإسلام دعا بالتوسط كما سبق .. قال تعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِـكَ وَلاَ تَبْسُـطْهَا كُـلَّ الْبَسْـطِ﴾ [الإسراء ٢٩] . ولكـن سـلفنا الصالح فى نظرتهم الإيمانية الفاحصة يدركون قيمة ميراث الأبناء من بعد.. وخطورة المادة حين يقوى جانبها ويشتد وحين يمسك الأبناء بها وينحرفون بسببها.

فمن الناس من يورث أبناءه أموالاً طائلة وعقارات لا حصر لها ظنًا منه أنه حين يفارق الحياة يفارقها وهو مطمئن عليهم من الفقر، ولو أنه ورث أبناءه ثروة الإيمان والعمل الصالح والقيم الروحية والتهذيب الخلقى لكانوا أغنى بكثير وأعظم وأسعد من ميراث المال الذى ربما أفسدهم ومزقهم ، ومن الناس من يورث أبناءه إيمانًا صادقًا وعملاً صالحًا وسلوكًا قويمًا ، ولم يترك لهم من المال شيئًا فإذا بثروة الإيمان والعمل الصالح تجعلهم أغنياء فى الدنيا وفى الآخرة.

وها هو ذا نموذج من السلف الصالح.. إنه الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، لقد قال له مسلمة بن عبد الله رضى الله عنه عند مرض موته.. يا عمر لقد تركت أولادك لا شىء عندهم فيصبحون فقراء وما كان هذا يقع منك يا عمر.. فرد عليه قائلاً : والله ما منعتهم حقًا لهم ، فبنىَّ أحد رجلين .. إما رجل يتقى الله فسيجعل الله له من كل ضيق مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب وإما رجل مكب على المعاصى فإنى لم أكن أقويه على معصية الله . إن الإسلام دعوة إلهية لسعادة البشر دنيا وآخرة وفى قوانينه الرشيدة أمان للنفس والمال والعرض ، وفى ظل تعاليمه السمحة المضيئة تشرق حياة الناس بالخير والرشد والحق والسعادة والله هو الهادى إلى سواء السبيل.

الرحمة

قال الراغب فى المفردات : الرحمة : رقة تقتضى الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة فى الرقة المجردة ، وتارة فى الإحسان المجرد دون الرقة، نحو : رحم الله فلانًا وإذا وصف بها البارى فليس يراد بها إلا الإحسان المجرد دون الرقة .

ولا يطلق الرحمن إلا على الله تعالى من حيث إن معناه لا يصلح إلا له، إذ هو الذى وسع كل شىء رحمة ، والرحيم : يستعمل فى غيره ، وهو الذى كثرت رحمته، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيم﴾ ، وقال فى صفة النبى صلى الله عليه وسلم :﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة ١٢٨] . وقيل : إن الله رؤوف رحيم وقيل: إن الله تعالى هو رحمن الدنيا ورحيم الآخرة وذلك أن إحسانه فى الدنيا يعم المؤمنين والكافرين ، وفى الآخرة يختص بالمؤمنين ، وعلى هذا قال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف ١٥٦] . إلخ الآيات تنبيهًا على أنها فى الدنيا عامة للمؤمنين والكافرين ، وفى الآخرة مختصة بالمؤمنين.

والناظر إلى رحمة الله تعالى يجد أنها سابغة ووافرة ، وكل سور القرآن الكريم افتتحت بوصف الله : ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ومن استغفار

الملائكة للمؤمنين التائبين الذين اتبعوا سبيل الله : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾
[غافر ٧]

ولقد لفت الرسول صلى الله عليه وسلم أنظار أصحابه إلى رحمة الله فى صورة محسوسة يمثلها لهم عندما رأى أمًا تضم طفلها فى شفقة ورحمة فقال: « أترون هذه طارحة ولدها فى النار؟ » قال أصحابه: لا والله يا رسول الله ، قال: « لله أرحم بعباده من هذه بولدها».

كما أبرزت السنة الشريفة مقدار ما ادخره الله من رحمته يوم القيامة، قال صلى الله عليه وسلم :« جعل الله الرحمة مائة جزء ، وأنزل فى الأرض جزءا واحدًا، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه» .

ولقد طبق الرسول صلى الله عليه وسلم خلق الرحمة فى كل سلوكه ،وقد بينتها أقواله وأفعاله ، لأن الرحمة سر مبعثه ، وجوهر رسالته، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء ١٠٧] . وقال صلى الله عليه وسلم: «إنما أنا رحمة مهداة » ، ولم تبرح الرحمة قلبه الشريف حتى فى أحلك الأوقات ومع أعدائه. ففى يوم أحد ـ عندما حاول الكفار أن يغتالوه ـ نظر إلى أصحابه ورأى ما هم فيه من شدة وما هو فيه من شدة، فقد شق خده وسقطت سنه ، وقيل له ادع على المشركين ، فقال : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون ».

أما أصحابه صلى الله عليه وسلم فقد مثلوا المجتمع المؤمن الرحيم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُم﴾ [الفتح ٢٩] وذكر الشدة هنا ، لتقويم من يخشى منه ، فيحصر خطره، وفى هذا رحمة له وللمجتمع.

ومن رحمة الله بالإنسان: ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما، عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال: « إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بيَّن ذلك فمن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هَمَّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هَمَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة وإن هَمَّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة ».

ومعنى الحديث : أن الله قدر جزاء الحسنات والسيئات ، وأمر ملائكته بكتابة ذلك ، فمن هَمَّ بحسنة أى طاعة، والمراد بالهم : الإرادة : وهى مرتبة دون التصميم ، وهو يفيد ترجيح الفعل على الترك، وقيل : المراد بالهم : العزم « فلم يعملها » بسبب أمر خارج عن إرادته فإن من رحمة الله أنه يكتبها له حسنة كاملة ، ويأمر الملائكة بكتابتها، أما إذا عملها فرحمة الله أوسع من أن يأخذ ثوابها فحسب ، بل إن الله يكتبها عنده عشر حسنات ، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، أما السيئة فإن هَمَّ بها فلم يفعلها ، خوفًا من الله كتبها الله عنده حسنة ، وفى الحديث القدسى : « إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها ، فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها من أجلى فاكتبوها له حسنة ».

ويحتمل أن هذا الجزاء لكل من تركها، إلا أن من تركها خوفًا من الله جزاؤه أكثر من غيره، أما إذا عملها فإن الله يكتبها سيئة واحدة، قال تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام ١٦٠] وبهذا يتضح لنا مدى رحمة الله الواسعة فيما يتعلق بالثواب والعقاب.

وكما شرع الله تعالى رحمته لعباده ، شرع لرحمته الإنسان بنفسه طرقًا كثيرة، ورخصًا عديدة فى العبادات، فشرع التيمم فى الطهارة والإفطار فى الصيام للمسافر ومن به عذر ، والقصر والجمع والتخفيف فى الصلاة ، يقول صلى الله عليه وسلم : « إنى لأقوم إلى الصلاة وأريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبى فأتجاوز فى صلاتى كراهية أن أشق على أمه».

ومن تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم التى تداركت الإنسان بالرحمة وخلصته من التردى فى المعتقدات الفاسدة ، أو العدوى المهلكة ، من تعاليمه فى ذلك ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، وفر من المجذوم كما تفر من الأسد » فقد نفى هذا الحديث أمورًا فى نفيها رحمة للعقيدة : « لا عدوى » أى لا تؤثر بذاتها بل بإرادة الله تعالى ، « ولا طيرة » أى لا تشاؤم بالطير فإنه لا يعلم الغيب إلا الله « ولا هامة » نفى لما كانوا يعتقدونه قديمًا وهو تمثل روح القتيل بطائر يصيح للأخذ بالثأر ، «ولا صفر» حيث كانوا يتشاءمون منه فلا يتاجرون ولا يتزوجون فيه ، ثم أمر بعد ذلك بالفرار من المجذوم، والجذام مرض يتغير منه الجلد ويتناثر وهو يعدى بالقرب منه ، وبهذا كان الإسلام له فضل السبق على

النظم الصحية فى تقرير قواعد الحجر الصحى ، وأما ما ثبت أنه صلى الله عليه وسلم أكل مع مجذوم ، فذلك ليبين أن الله هو الذى يمرض ويشفى وبيده كل شىء ، أو لعله أُلْهِمَ إنه لن يصاب بشىء وفى فعله تنبيه على أن العدوى لا تنتقل بنفسها بل بفعل الله.

كما وجه الله تعالى عباده إلى الرحمة بالوالدين، قال تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء ٢٤] ووجههم إلى الرحمة بالأولاد ، فمما ثبت فى ذلك :« أتى أبو بكر عائشة وقد أصابتها الحمى فقال: كيف أنت يا بنية وقبل خدها» . وتقبيل الرسول صلى الله عليه وسلم للحسن والحسين.

وأما رحمة الأقارب، فقد روى عبد الرحمن بن عوف قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى : أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسمًا من اسمى ، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بتته ».

وفى هذا الحديث : تكريم للرحم، حيث اشتق اسمها من اسم الله «الرحمن» الذى يفيد الاتصاف بالرحمة البالغة ثم بين أن من وصلها وداوم على برها داوم الله عليه رحمته، ومن قطعها « بتته » أى قطعته ، وحكم صلة الرحم أنها واجبة وقطعها من الذنوب الكبيرة والرحم منها القريب غير المسلم، وقد أجاز الإسلام صلته للرحم التى يرتبط بها ، ومن وجوه صلة الرحم : ما يكون بالمال ، أو تفقد الأحوال أو قضاء المصالح ، ومن ثمراتها : البركة فى العمر وفى الرزق.

والحديث بهذا يفتح للرحمة أبوابها ليقبل أهل الخير على صنائع المعروف والبر:

وتتسع جوانب الرحمة ، حتى تشمل الجار ، والضيف والعمل والقول، وفى هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » جائزته، قالوا : وما جائزته يا رسول الله ؟ قال : «جائزته يوم وليلة ، والضيافة ثلاثة أيام، فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه، ولا يحل أن يثوى عنده حتى يحرجه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت» وتتجلى الرحمة بالجار، والضيف وفى قول الخير عند من آمن بالله واليوم الآخر ، وفى تعبيره بقول: « ومن كان يؤمن » لإثارة باعث الخوف والأمل وتعظيم شأن هذه الحقوق، والجار هو : القريب فى المسكن ، وإكرامه بالإحسان إليه ، ومنع الأذى عنه، وأما الضيف: فهو كل من نزل على غيره ، وإكرامه حسن تلقيه وتقديم التحية اللائقة به ، أما الجائزة : فهى مدة اجتياز الضيف من مرحلة إلى أخرى وهى يوم وليلة ، ومعنى « يثوى » : يقيم ، ويكون إحراج الضيف له باضطراره إلى الاستدانة وغير ذلك مما يحرجه ، وأما قول الخير : فيكون بضبط اللسان وإمساكه إلا ما كان فى الخير ، ويترتب على هذه الأصول غرس الرحمة والمودة فى قلوب المسلمين وقول الخير ، يرمز إلى الحق المتعلق بالله ، وإكرام الجار والضيف يرمز إلى حق الناس وبهذا يتضح سر الاقتصار على هذه الأمور الثلاثة.

وتتسع جوانب الرحمة أكثر ، فتشمل جميع المؤمنين ، وتكون منهم جسدًا واحدًا يحس كل منهم بإحساس الآخر ، عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

وفى هذا تشبيه لحال المسلمين - وهم فى توادهم أى : تواصلهم وتبادل المودة بينهم ، وفى تراحمهم وتعاطفهم - بحال الجسد الواحد فى تأثر سائر الأعضاء بما يحدث لبعضها ، ذلك لما يجمع بينهم من رابطة الإيمان: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات ١٠] . هذه الرابطة هى أساس الرحمة الشاملة التى جعلت كلاً منهم يحس بإحساس أخيه كما قال صلى الله عليه وسلم فى صفة هذه الرحمة الشاملة وهذا التعاون العظيم :« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا ».

كما تناول الإسلام فى الحض على الرحمة تقرير مبدأ التكافل الاجتماعى، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال: بينما نحن فى سفر مع النبى صلى الله عليه وسلم إذ جاء رجل على راحلة فجعل يصرف بصره يمينًا وشمالاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :« من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا اظهر له ومن كان معه فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل.

إنها لصورة رائعة من صور التكافل الاجتماعى تدعو من كان معه فضل ظهر - أى راحلة - أن يتصدق بها على المحتاج ، وكذلك الوضع بالنسبة لتطور وسائل النقل والمواصلات، على صاحب اليسار معاونة المحتاج وحمله ، وأيضًا من كان معه شىء زائد عن حاجته أن يتصدق به على المحتاج ، ثم أخذ يعدد كثيرًا من أنواع المال، موصيًا ببذلها ، والأمر هنا بالتصدق عما زاد محمول على الندب عند الجمهور ، ويحتمل أن يكون للوجوب وذلك فى حالات الضرورة.

وتعالج الرحمة كذلك سائر العلاقات الإنسانية ، فتعمل على تحريرها من قسوة الهجر والخصام ، عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال: يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام»

والمراد بالرجل فى الحديث : هو المسلم . والحديث يوضح حكم الهجر بين المسلمين ، فيحرم أكثر من « ثلاث ليال » ويباح فى الثلاث ، أما إذا كانت هجرة المسلم بسبب غضب من أجل الله فلا مانع أن تزيد على ثلاثة أيام حتى يذهب سبب الغضب ويفيء إلى أمر الله ، وفى هذا الحديث : دعم لأخوة الإيمان بين المسلمين ، والعمل على إزالة ما يعكر الصفو بينهم، قال تعالى : ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال٤٦] .

وتنداح الرحمة فى أبعاد هائلة ، حتى تصل للإنسان فى وقت هو فى أشد الحاجة فيه إلى الرحمة وهو ما بعد الموت ، فيرشد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أسباب الرحمة والثواب بعد الموت . عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :« إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له »

و« الصدقة الجارية » : هى المستمرة الدائمة كالوقف والوصية ، و «العلم الذى ينتفع به » : يراد به أولاً : علم الكتاب والسنة ثم العلوم المساعدة ، ثم كل ثقافة تعمل على نهوض الأمة ورقيها. و« الولد الصالح » هو الطائع البار.

هذه الأمور تعمل على استمرار الرحمة والمثوبة بعد الموت ، لأنها امتداد للإنسان وقد أجمع العلماء على وصول ثواب الصدقة والحج، واختلفوا فى

الصوم والصلاة وقراءة القرآن ، إلا إذا كان الصوم واجبًا على الميت فقضاه وليه عنه . وقد وردت أحاديث أخرى بأمور غير هذه الأمور كبناء المساجد، وبناء بيت لأبناء السبيل وغير ذلك ، وهذا لا ينافى الحديث الذى معنا؛ لأنه لم يحصر ما ينتفع به الميت فى هذه الأمور فحسب أو يكون قد أخبر بما زاد عليها بعد ، فنبه عليه فى غير هذا الحديث ، كما لا تنافى أيضًا بين الحديث وبين قوله تعالى: ﴿ وَأن لَّيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ [النجم ٣٩] . لأن تلك الأمور المذكورة فى الحديث تعتبر من كسب المرء وعمله ، وهى أيضًا من باب الفضل الإلهى، أما الآية فهى تبين مقياس العدل ، أو أن تلك الأنواع قد استثنيت من عموم الآية.

ولا تقتصر الرحمة على هذه الجوانب ، بل إن الإسلام حث عليها فى شتى مجالات الحياة : الرحمة باليتيم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلاً شكا رسول الله صلى الله عليه وسلم قسوة قلبه. فقال : « امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين ».

والرحمة بالمرضى وذوى العاهات، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور ٦١] .

والرحمة بالخدم رفقًا بهم، وتجاوزًا عن هفواتهم ، عن أبى مسعود البدرى: كنت أضرب غلامًا بالسوط فسمعت صوتًا من خلفى : « اعلم أبا مسعود » فلم أفهم الصوت من الغضب فلما دنا منى إذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا هو يقول : « اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام » فقلت يا رسول الله ، هو حر لوجه الله تعالى ، فقال: « أما لو لم تفعل للفحتك النار».

ولا تقتصر الرحمة على الإنسان بل إنها تشمل الحيوان رفقًا به وعطفًا عليه.

وهكذا نرى كيف اتسعت دائرة الرحمة فى الإسلام حتى شملت القريب والبعيد ، والإنسان والحيوان ، ولا غرابة فى هذا فإن الله تعالى هو الرحمن الرحيم ، وأرسل رسوله رحمة للعالمين ، فالرحمة هى جوهر الرسالة السماوية، وفى ظلها تنعم الأمم بالأمن والاستقرار ، ولن تستقر الأمم وتسعد الشعوب برحمة ربها إلا إذا طبقت مبادئ القرآن والسنة طاعة لله والرسول، كما قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ **[آل عمران ١٣٢]**

وصلى الله على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله ، وصحبه أجمعين .

التواضـــع

فضيلة التواضع من دلائل كمال الإيمان

إن فضيلة التواضـع مبعثـها كمـال الإيمـان ، قـال الله تعـالى : ﴿وَعِبَـادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾ **[الفرقان ٦٣]**

وإذا كان الكبر طريقًا إلى الانخفاض وعدم الرفعة ، فـإن التواضـع طريـق إلى العلو والارتفاع ، قال صلى الله عليه وسلم: « ما نقصت صدقة من مال، وما زاد عبد بعفو إلا عز ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » ولطالمـا طبـق صحابة الرسول صلـى الله عليـه وسـلم خلـق التواضـع فـى كـل تصرفاتـهم وسلوكهم ، عن طارق قال: خرج عمر إلى الشام ومعنا أبو عبيدة فأتوا علـى مخاضة (مستنقع) وعمر على ناقة له ، فنزل وخلع خفيه فوضعهما علـى عاتقه وأخذ بزمام ناقته فخاض ، فقال أبـو عبيـدة : يـا أمـير المؤمنـين : أنت تفعل هذا ؟ ما يسرنى أن أهل البلد استشرفوك ، فقال: أوه ، لو قال ذا غيرك أبا عبيدة جعلته نكالاً لأمة محمد ، إنا كنـا أذل قـوم فأعزنـا الله بالإسلام ، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله .

وقد خاطب رب العزة رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ فَبِمَا رَحْمَـةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُم﴾ [آل عمران ١٥٩] وقال: ﴿وَاخْفِضْ جَنَـاحَكَ لِمَـنِ اتَّبَعَـكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء ٢١٥] .

ثمـرات التواضـع

ومن أهم ثمرات التواضع رضا الله تعالى عن المتواضعين ، وإكرامه ورفعه لدرجاتهم ، فمن تواضع لله رفعـه الله ، كما جـاء فـى الحديـث :« ومـا تواضع أحد لله إلا رفعه الله ».

ومن ثمرات التواضع : منع التفاخر والبغى والظلم بين العباد ، فكم من ظالمين دفعهم كبرهم وغرورهم إلى ظلم إخوانهم . قال صلى الله عليه وسلم: « إن الله أوحى إلىَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغى أحد على أحد ».

ومن ثمراته : حب الناس للمتواضــع ، لأنـه يمشـى علـى الأرض هونًـا ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان ٦٣] .

ومن ثمرات التواضع سلوك سبيل الجنة ، على عكس الكـبر فـإن فيـه سلوك طريق النار ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:« لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » .

من عوامل التعصب :

الصلـف والجـمـود

الإسلام هو ديـن السـماحة واليسر ، يقـر الاجتـهاد ويحـرم الجمـود ، ويدعو إلى التسامح والتيسير ، ويحـرم العنـف والتعسـير ، ويحـترم المنحـة الربانية ، التى منحها الله للناس ، وهى منحة العقل .

وكان لكل مجتهد فهمه واجتهاده ، فلا يصح لمجتهد أن يخطئ مجتهدًا ، ولا لصاحب عقل أن يتعصب لرأيه ويحتقر آراء الآخرين. وإذا كان منهج الإسلام فى الدعوة قام على الحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتى هى أحسن ، فلا يصح التعصب لرأى دون آخر مادام لم يصادم أصلاً من الكتاب والسنة.

وإن طلاب الحق ، وأهل العلم والمعرفة يتتبعون الحكمة ويأخذونها أنَّى وجدوها ، فهى ضالتهم لا يعنيهم من أى وعاء خرجت.

وإذا كان الأمر كذلك ، فما السر فى انتشار ظواهر التعصب ؟ وما الأسباب الجوهرية الكامنة وراء هذه الظواهر ؟

أقول: إن من أهم وأبرز أسباب التعصب للرأى والجمود على فكر واحد ، هو تحكم الصلف والجمود ، والكبرياء والجحود من بعض النفوس الضعيفة التى تستبد بها آفة الكبر ، فتجعلها جامدة على موقفها متعصبة للرأى الذى تعتنقه ، وتصم الآذان عن سماع أحد ، لذا كان من الواجب أن نلقى الضوء على دعوة الإسلام للتخلى عن رذيلة الكبر، والتحلى بفضيلة التواضع وبيان آثار الصلف وأسبابه ليتحاشاها الشباب وغيرهم ممن وقعوا فريسة التعصب الأعمى ، والجمود البغيض ، لذا لزم أن نوضح دعوة الإسلام إلى تنقية النفس الإنسانية من آفات الكبر والغرور ، ونكشف آثاره السيئة وأسبابه ، ثم نوضح دعوة الإسلام إلى التواضع وبيان ثمراته.

والكبر : هو استعلاء الإنسان على غيره من الناس ، والترفع على من دونه ، وهو مرض خلقى ، ورذيلة من أسوأ الرذائل ، ونهى الإسلام عنها وحذر منها ، قال الله تعالى ﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ

مَرَحًا﴾ [لقمان ١٨] . وقال سبحانه : ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ [الإسراء ٣٧] .

والصورة الواضحة فى معنى الكبر تظهر عندما يدفع المتكبر الحق ويرده فلا يقبله ، وحين يزدرى الناس ويحتقرهم ، ولا يحترمهم ، عن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنًا، قال: « إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس». ومعنى بطر الحق : رده وعدم قبوله، ومعنى غمط الناس : احتقارهم وعدم احترامهم.

والكبر من صفات الله تعالى ، فهو سبحانه : ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّار الْمُتَكَبِّر﴾ [الحشر ٢٣] .. فالعظمة إزاره ، والكبرياء رداؤه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :يقول الله تعالى : «الكبرياء ردائى والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحدًا منهما ألقيته فى جهنم ولا أبالى ».

والكبر يورد صاحبه موارد الهلاك ، لأنه يدفع صاحبه إلى كل شر ، ويبعده عن كل خير .

عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال: التقى عبد الله بن عمرو وعبد الله ابن عمر على الصفا فتوافقا ، فمضى ابن عمرو وأقام ابن عمر يبكى، فقالوا: ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن ؟

فقال : هذا - يعنى عبد الله بن عمرو - زعم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبه الله فى النار على وجهه ».

ومن الآثار السيئة التى تترتب على هذا المرض الخلقى - الكبر - ما يأتى :

أولاً : أن الله تعالى يعمى قلب المتكبر ، فلا يهتدى إلى الحق ، ولا يفهم آيات الله تعالى ، ولا يتدبر ما فيها ، لأن الله تعالى طمس على قلبه ، عقوبة له على تكبره، وفى هذا إنذار لكل من تسول له نفسه أن يتكبر وأن العاقبة الوخيمة لكل من يصرف عن آيات الله بسبب تكبره ، قال سبحانه : ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ﴾ **[الأعراف١٤٦]** . وقال سبحانه : ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّار﴾ **[غافر ٣٥]** .

ثانياً : أن الله تعالى لا يحب كل مختال فخور، ولا يحظى بكرم الله تعالى إلا من أحبه فالمتكبر بعيد عن الله قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَال فَخُور﴾ **[لقمان ١٨]** .

ثالثاً : يمتد خطر الكبر حتى يصل صاحبه إلى أن يستكبر عن عبادة ربه سبحانه وتعالى فتكون نهايته جهنم وبئس القرار.

قال تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ **[غافر ٦٠]** .

رابعًا : من الآثار التى تعود على المتكبر غضب الله سبحانه ، وسوء خاتمته حتى يلقى الله وهو عليه غضبان ، عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « من تعظم فى نفسه واختال فى مشيته لقى الله تبارك وتعالى وهو عليه غضبان » .

خامسًا: أن الله تعالى يعجل للمتكبر العقوبة ويضاعفها له ، حتى تصل إلى الخسف فى الدنيا ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « بينما رجل يتبختر فى بردته ، إذ أعجبته نفسه ، فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة».

سادسًا : أن المتكبر يظل فى الجهل ، وإذا علم لا يزداد علمه ، لأن كبره يمنعه أن يسأل أهل العلم ، وأن يحضر مجالس العلم ، وأن يستفسر عما يجهله .. وهذا على عكس الإنسان المتواضع فإنه لا يرى بأسًا من أن يأخذ العلم عن العلماء وعمن هو أكبر منه ، وعمن هو مثله وعمن هو دونه ، كما قال بعض سلفنا :

(لا يَنْبُلُ الرجل حتى يأخذ العلم عمن هو فوقه وعمن هو مثله وعمن هو دونه).

سابعًا : ومن آثار الكبر السيئة التى تعود على صاحبه بالويل والثبور ، أنه يمنع الإنسان من قبول آراء الآخرين ونصائحهم وتوجيهاتهم ، فتراه يتعصب لرأيه ، أو للرأى الذى يعتنقه ويزعم أن ما عداه من الآراء الأخرى غير صحيح ، وأن رأيه هو وحده الصحيح ، فيظل جامدًا على رأى واحد ، وفكر معين ، لا يقبل غيره ، ولا يقبل نصائح الآخرين ..

وفى هذا التعصب ما فيه من الأضرار ، التى تضيق ما وسع الله ، وتمنع الخير عن الإنسان وعمن يحيط به من إخوانه ، وبنى جنسه ، والتعصب هو شر الآثار السيئة التى تأتى نتيجة الكبر والغرور والصلف.

أسباب التكبر

والذى يدفع الإنسان إلى رذيلة التكبر ، هو ضعف إيمانه بالله ، إذ لو كان قوى الإيمان بالله ، ما تكبر ، لأنه يكون ـ حينئذ ـ مؤمنًا بأن الله وحده هو الكبير المتعال ، وهو العزيز الجبار المتكبر.

فأول أسباب التكبر: هو ضعف الإيمان بالله ، وعدم الإيمان بالآخرة، وما فيها من ثواب وعقاب ، وأن الملك فيها لله الواحد القهار ، قال الله تعالى:

﴿فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [**النحل ٢٢**]

ومن أسباب التكبر التفاخر بالأحساب والأنساب ، والله تعالى ، قد جعل ميزان الأفضلية بتقواه ، لا بالأحساب ولا بالأنساب . ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [**الحجرات ١٣**] .

وعن أُبيّ بن كعب رضى الله عنه قال: إن رجلين تفاخرًا عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما للآخر : أنا فلان ابن فلان حتى ـ عد تسعة ـ فمن أنت لا أم لك ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : افتخر رجلان عند موسى عليه السلام ، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: « قل للذى افتخر : بل التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم ».

ومن أسباب التكبر أن يكون الإنسان أكثر عبادة من غيره ، وكان عليه

أن يدرك أن حسن الخاتمة بيد الله تعالى وحده ، ولا يدرى أحد من نفسه أيثبت على الطاعة أم لا ، ورب معصية أورثت ذلاً وصغارًا خير من طاعة أورثت عزًا واستكبارًا ، وقد روى أن رجلاً من بنى إسرائيل أتى عابدًا ، فوطئ على رقبته وهو ساجد فقال له العابد : ارفع : فوالله لا يغفر الله لك ، فأوحى الله إليه : أيها المتألى عليَّ بل أنت لا يغفر الله لك .

ومن أسباب التكبر : المال وكثرة العرض ، وعلى من بيده مال ألا يتعالى على الناس به ، بل عليه أن يشكر الرزاق فيصرفه فى الوجوه المشروعة ، فالمال عرض زائل ، وهو فتنة لصاحبه فيكون سبب هلاكه ، إن طغى وتكبر بسبب المال ويكون خيرًا له إن تواضع به ، أعطى حقوق العباد منه ، وعليه ألا ينسى أنه من تراب وإلى تراب.

قال الشاعر:

نسى الطين ساعة أنه طين ... حقير فصال تيهًا وعربد
وكسا الخز جسمه فتباهى ... وحوى المال كيسه فتمرد
يا أخى لا تمل بوجهك عنى ... ما أنا فحمة ولا أنت فرقد
أنت فى البردة الموشاة مثلى ... فى كسائى الرديم تشقى وتسعد
أأمانى كلها من تراب ... وأمانيك كلها من عسجد؟
وأمانى كلها للتلاشى ... وأمانيك للخلود المؤكد؟
لا فهذى وتلك تأتى وتضمى ... كذويها وأى شىء سرمد
أنت مثلى من الثرى وإليه ... فلماذا يا صاحبى التيه والصد؟

وكان على صاحب المال ألا يتعالى على الناس به وألا يتفاخر ويتكاثر،

بل يخرج زكاة ماله ، وينفق منه ، « نعم المال الصالح للرجل الصالح » فحبذا لو جعل منه صدقة جارية تبقى له بعد موته، كما قال صلى الله عليه وسلم :« إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له».

والذى يتكبر بالمال، لا يأمن أن تزول النعمة من يده ، و يهلك ماله، فليس له أن يستعلى على الناس بالمال ، بل عليه أن يؤدى حق الله وحق العباد.

ومن أسباب التكبر : المنصب والسلطان والجاه ، فكثير من الناس يتغيرون فى معاملاتهم إذا ولوا منصبًا ، ويأخذهم الصلف والغرور، وينسى رفقاء رحلته أيام التعب والخشونة ، ولكن شأن كرام المؤمنين ألا تغيرهم المناصب ، وألا ينسوا إخوانهم ، كما قال الشاعر:

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا ... من كان يألفهم فى الموطن الخشن

فعلى من رأى فى نفسه الاستعلاء بسبب المنصب أن يرى نفسه أصلها وأن يتخلى عن مرض الغرور ، ويتحلى بالتواضع ، فها هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه .. يخطب فيقول: أيها الناس لقد رأيتنى أرعى الغنم عند خالات لى من بنى مخزوم ، فأقبض من التمر والزبيب ، فأظل بها يومى ، فقال له عبد الحمن بن عوف : يا أمير المؤمنين ، ما زدت على أن عبت نفسك؟ فقال له عمر : ويحك يا ابن عوف ، إنى خلوت بنفسى فحدثتنى فقالت: أنت أمير المؤمنين ، فمن ذا أفضل منك ؟ فأردت أن أعرفها نفسها.

وها هو عمر بن عبد العزيز كان مع بعض جلسائه ، فاحتاج السراج إلى

إصلاح، فقام ليصلحه ، فقالوا له : كلما نكفيك ذلك؟ فقال : ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه، قمت وأنا عمر ، ورجعت وأنا عمر ما نقص منى شىء .

وبمثل هذا التصرف الحكيم يعالج العقلاء نزعات النفوس التى توردهم مورد الصلف والغرور، ويعالجون ضعف أنفسهم بالحكمة.

وقد يكون العلم من أسباب التكبر عند بعض الناس، وذلك حين لا يطلبه صاحبه لوجه الله وحين يباهى به الناس ، أو يتظاهر بأنه أعلم الناس وأعظم الناس ، والله يقول :﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء ٨٥]

وقد كان الأولى بأهل العلم أن يكونوا أكثر الناس تواضعًا ، لأنهم أعلم الناس بفضل التواضع ، وأدرى الناس بنهاية المغرورين والمتكبرين .

وقد كان أهل العلم من سلفنا أكثر الناس تواضعًا ، وقدوتهم فى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى كان يستوقفه الرجل العجوز، والصغير والكبير فى الطريق ، وفى كل مكان فيقف ويجيب كل سائل دون ملل أو تبرم ، وكان سلفنا الصالح نماذج عالية فى هذا المضمار، رأى ابن عباس رضى الله عنهما زيد بن ثابت يومًا يركب دابته فأخذ بركابه يقود به ، فقال زيد: تنح يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا وكبرائنا ، فقال زيد : أرنى يدك ، فأخرج ابن عباس يده فقبلها زيد ، وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا.

وهكذا نرى تواضع العلماء مع كبرائهم ، وتوقيرهم لهم وتواضع كبارهم،

وآل بيت النبى صلى الله عليه وسلم ، إنها قمة التواضع والخلق الرفيع ، والأدب العالى العظيم .

خطورة المجاهرة بالذنب :

عن أبى هريرة رضى الله عنه يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كل أمتى معافى إلا المجاهرين ، وإن من المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ، ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول : يا فلان عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ، ويصبح يكشف ستر الله عليه».

يكشف الحديث عن بعض الطبائع الآثمة ، والنفوس التى لا تركن إلى الحياء والستر، بل خلعت ثوب الحياء ، وجاهرت بالمعاصى وتحدثت عنها ، ولاشك أن للمجاهرة بالذنب أو التحدث به مع الغير أثرًا سيئًا، حيث يكون هذا دعوة إلى الرذيلة ، وانتشارًا لها بين الناس فيرى بعض أصحاب القلوب الضعيفة ، وأصحاب الإيمان الضعيف هذا المجاهر فيقلدونه ، ويحاكون أفعاله، فكأنه عمل على نشر هذه المعاصى بلسان حاله وبلسان مقاله أيضًا.

أما لسان الحال فمثاله : من يجاهر ـ دون عذر ـ بالفطر فى نهار شهر رمضان ، ومن يجاهر بالسرقة أو الاغتصاب أو النظر إلى ما حرم الله تعالى عليه .

ومن قبيل المجاهرة بالمعصية بلسان الحال الذين يشربون الخمور ويتعاطون المخدرات جهارًا أو على مرأى من الناس.

وأما المجاهرة بلسان المقال فهى التى تكون بالتحدث إلى الغير ، وبالكلام مع الناس فيما ارتكبه من المعاصى ، وقد ضرب الحديث مثلاً بهذا النوع من المجاهرة بلسان المقال : « .. أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستره الله عليه » فيقول : يا فلان عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ، ويصبح يكشف ستر الله عليه».

وقد وضح الرسول صلوات الله وسلامه أن كل أمته معافى إلا المجاهرين، وكلمة « معافى» جاءت على صيغة « المفاعلة » التى تفيد المشاركة بين طرفين فى الأمر ، والمشاركة هنا بين طرف مرتكب الذنب سرًا غير معلن به فيكون معافى من أذى الناس ومن القيل والقال ، وبين غيره من الناس حيث يكونون سالمين من أذاه لهم فما داموا لم يعلموا بحاله فلن يتأثر به أحد ولن يحاكيه أحد.

وهذا على معنى أن المراد بالمعافاة السلامة من الأذى . وأما على معنى أن يعافيه الله من ذنوبه فيغفرها له فيكون العبد الذى لم يجاهر ولم يعلن ذنبه فى عفو الله تعالى ، وعلى رجاء غفرانه ، لخوفه واستتاره واستشعاره بهذا الاستتار الخوف من الله تعالى .

وكما أنه على رجاء العفو فإن غيره من الناس الذين يشاركهم أو يجتمع بهم يكونون كذلك، حيث إنهم لا يتكلمون عنه ، ولا يؤذونه بألسنتهم . واستثنى الحديث من ذلك المجاهرين لخطورتهم، حيث إنهم لم يتسموا بالحياء بل أعلنوا العصيان فكأنهم لم يكتفوا بالذنب بل استحبوا البقاء عليه والتحدث به، وفى هذا انتشار للذنوب بين الناس وتمكين لبعض الناس أن يحاكوهم.

والمجاهرة : ليست على بابها فلا يشترط وجود طرفين مشتركين فيها وإنما يترتب الحكم على المجاهرة بالمعصية وإعلانها ، وقد جاء اللفظ على هذه الصيغة مبالغة فى الفعل وتفسيرًا منه لأن المجاهر يتسبب فى سلوك غيره مسلكه وفى محاكاته وتقليده ، فكأنه قد شاركه غيره .. ثم وضح الحديث أن من المجازة، أى من الخلاعة والمجون والفجور هذا الاستهتار الذى يظهر فى صورة التحدث بالذنب والتلذذ والتمتع به والمفاخرة بارتكابه ، إنه نوع من أنواع المجاهرة ، حيث ستره ربه ولكنه يكشف ستر الله ويتكلم عما اقترفه، ومما لاشك فيه أن غير المجاهر إنسان استحيا من الله ومن الناس وبصدد الندم والتوبة ، ويرجى لمن يستحى ويندم ويستغفر أن يتوب الله عليه، وقد سأل رجل ابن عمر رضى الله عنهما : كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: فى النجوى؟ قال: « يدنو أحدكم من ربه حتى يضع التوبة عليه فيقول: عملت كذا وكذا ؟ فيقول نعم ثم فيقرره ثم يقول: إنى سترت عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم». رواه البخارى .

بين الخوف والرجاء

يتشكل الوجدان الإسلامى المعتدل بين الخوف والرجاء، حيث يتوازن بناء الشخصية فلا يؤدى به الرجاء إلى الإهمال ولا يؤدى به الخوف إلى اليأس : ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [**يوسف ٨٧**].

وبين الخوف والرجاء يستيقظ الضمير الدينى محذرًا لصاحبه من التردى فى مهاوى الفساد والتهلكة مرغبًا له فى طريق الطاعة والنجاة ، وبالرغبة والرهبة تنمو فى الأعماق عواطف جياشة وأحاسيس صادقة مبعثها صحة

العقيدة وقوة الصلة بالله وهذه الصلة الوثيقة هى التى تضفى على حياته الرجاء فى رحمة الله وفى الوقت نفسه تحذره من عذابه : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَه﴾ **[الإسراء ٥٧]**.

والاتجاه إلى الله بالرغبة والرهبة مع المسارعة فى الخيرات سبيل لفتح الأبواب وتحقيق الآمال، لأنه لا يستقيم على ذلك إلا من صدقت نيته وصفت سريرته وأشرقت حياته بالإيمان . ولقد أخبر الله تعالى عن زكريا عليه السلام حين طلب أن يهبه الله ولدًا يكون نبيًا من بعده فسارع هو وأهله فى الخيرات وفى الدعاء رغبًا ورهبًا ، فأجاب الله دعاءهم وحقق رجاءهم ، قال تعالى : ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾

[الأنبياء ٨٩، ٩٠]

فهذا نموذج عال يقدمه القرآن فيه تجلية لأثر الخوف والرجاء وما ينبغى أن يكون عليه المسلم فى دعائه واتجاهه إلى الله ، وبين الخوف والرجاء دائرة إيمانية مشرقة تنطفئ فيها المخاوف النفسية وينبثق منها الأمن الروحى حيث يكف الإنسان نفسه عن كل ما يغضب الله خوفًا منه ويسارع إلى مرضاته رجاء رحمته، وعندئذ يظل مستثمرًا ثواب الله وعقابه وغفرانه وعذابه.

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ **[الحجر٤٩، ٥٠]**. وقال تعالى : ﴿حم تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ

غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر١ـ ٣]

كما دعا القرآن إلى الخوف والرجاء ففى السنة الشريفة فيض غامر يستهدى به المسلم فى حياته ويفتح أمامه باب الأمل والرجاء فى رحمة الله .

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل : « سبقت رحمتى غضبى » وفيما روى أيضًا عن عمر بن الخطاب أنه قال : « قدم على رسول الله بسبى، إذا امرأة من السبى تبكى إذا وجدت صبيًا فى السبى أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار؟ قلنا : لا والله وهى تقدر على أن لا تطرحه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « الله أرحم بعباده من هذه بولدها » .

وحتى لا يتكل الناس على الرحمة وجانب الرجاء نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم يخبر عن وقوع العذاب من أمور قد يستهين البعض منها. روى الإمام مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلا هى أطعمتها ولا هى أرسلتها تأكل من خشاش الأرض » وتؤكد السنة المشرفة حقيقة الخوف والرجاء ومدى ما عند الله من العقوبة والرحمة حتى لا يتسرب الغرور أو اليأس إلى داخل النفس الإنسانية . روى مسلم بسنده عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته ، أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد ».

وترسم السنة صورة كاملة الملامح لحياة الإنسان اليومية يكتنفها الخوف والرجاء فى حركته وسكونه فى يقظته ونومه . ففيما رواه مسلم عن سعد ابن عبيدة ، قال: حدثنى البراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أخذت مضجعك فتوضأ للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل: اللهم إنى أسلمت وجهى إليك وفوضت أمرى إليك وألجأت ظهرى إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذى أنزلت ونبيك الذى أرسلت».

وليس فى عنصر الخوف من الله ما يدعى أعداء الإسلام، فإن الخوف صمام أمن وعاصم من الزلل ، والتربية فى أمس الحاجة إليه . ثم إنه ليس خوفًا من مخلوق وإنما خوف من الله.

يقول السلف: ينبغى تغليب الخوف على الرجاء مادام الإنسان يغدو ويروح فى الدنيا ، فإذا خرج منها حسن به الرجاء على الخوف عند الله، ويرى البعض أنه إذا غلب الأمن من عذاب الله فالخوف أفضل ، وإذا غلب اليأس فالرجاء أفضل.

ما أروع ما قاله ابن القيم فى هذا : القلب فى يد الله عز وجل بمنزلة الطائر ، فالمحبة رأسه والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران ، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل طائر وكاسر.

بين وازع الدين ووازع الضمير

وللوازع الدينى طابعه الواضح فى حياة الأفراد والجماعات والأمم والشعوب ، فصوت الحق ينبعث منه مدويًا فى الكيان الإنسانى له تأثيره القوى ، وله عمقه وفاعليته فى الواقع العملى للحياة والأحياء، ولقد تعددت الأشكال التطبيقية فى سائر المجتمعات البشرية واختلفت الأساليب ، وتنوعت المناهج وتضاربت الآراء لدى المجتمعات التى فقدت عنصر الوازع الدينى ولم تتخذ الإسلام منهجًا للحياة ، حتى وإن كان أفراد المجتمع مسلمين ، فهناك فرق واسع بين جماعة إسلامية أخذت الإسلام عقيدة وسلوكًا وتطبيقًا وبين جماعة إسلامية أخرى أخذت من الدين اسمه ومن الإسلام رسمه ولم تعمل بأصوله ، ولم تطبق منهجه.

فالأولى : تمتعت بالأمن والاستقرار، لأنها تقوم برسالتها فى وضوح من الأمر وأحكمت خطاها على درب النور وعلى الطريق المستقيم، ووجدت فى شريعة الله كل ما يحتاج إليه من قوانين تضبط السلوك والمعاملات ، قوانين ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، إنها قوانين ربانية نتائجها مضمونة.

وأما الثانية : فهى فى متاهات الحياة تتقلب كل يوم مع أنظمة حديثة وقوانين مستوردة ، وهى من صنع العقل البشرى ووليدة أمشاج من تجارب عاشت على مسار الزمن بين مد وجزر وقبول ورفض ، بينما تمسك بنظام إذا بها يتبين لها منه الخطأ والقصور فتعدل عنه وتذهب إلى غيره ثم تتركه وهكذا . لا استقرار ولا ثبات ، وطالما ارتفعت أصوات المصلحين وجلجلت نداءات الدعاة توجهًا إلى الحق ومقاومة للمنكر والشر، ولكن بلا صدى.

ولقد حاولت المدنية الحديثة أن تضع الضمير مرددًا : إنه يفعل كذا إرضاء لضميره ومحاولة اتخاذ الضمير من ضوابط العمل الإنسانى ، ومحاولة جعله هدفًا أو غاية أو الصدور عما يمليه على الناس ، كل ذلك نزوع إلى طريق الانحراف وإهدار لقيم نبيلة وطمس لمعالم لا يصل إليها صوت الضمير . وأحيانًا كثيرة يتجاهلها ويجهلها ويتناساها

ومن جانب آخر فإن ما يمليه الضمير الإنسانى ليس واحدًا فى كل الأمور وليس متفقًا مع جميع البيئات وليس متحدًا لدى جميع الأفراد والجماعات ، فالذين يحاولون أن يتخذوا إرضاء الضمير غاية وهدفًا هم يفرون من الحقيقة الواقعة، ومن الحق الثابت ومن قوانين الشريعة المستقرة التى لا تتغير إلى ما ليس ثابتًا ولا مستقرًا وهو الضمير ، لأنه يتغير من بيئة لأخرى ويختلف من جماعة إلى جماعة أخرى، بل وأحيانًا يختلف بين الجماعة الواحدة من فرد لآخر.

وتحت ستار إرضاء الضمير . قد تحدث المخالفة أو التفريط فى الواجب ويحاول البعض إقناع الآخرين بأنه أرضى ضميره . بل وقد يقنع نفسه بأنه راضى الضمير، مبررًا على حسب ما يحب ، ومفسرًا ظواهر الأشياء على حسب هواه ، وعندما يتخذ الإنسان الهوى طريقًا للعقل ـ وحده ـ هاديًا ، ويبتعد عن هدى ربه يضل ضلالاً مبينًا ، فلا هداية إلا هداية الله ، ولا حكم إلا لشريعة الله ، ولا وازع ولا رادع إلا من الإسلام.

أما الذين يتخذون الضمير ويسلمون حياتهم إلى هوى النفس أو حكم العقل، فهم بعيدون عن روح الإسلام ، وعن جوهر العقيدة الصحيحة ، يقول الله تعالى محددًا الاتجاه الحق فى شريعته وهو الذى يجب اتباعه

والبعد عن الهوى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ وَخَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية ١٨ - ٢٣] .

وأما عن وازع الدين ، فإنه يصدر عن حكم الله ، وفى رحابه يقدم الإنسان على العمل إرضاء لله وابتغاء مرضاته وطاعة له .. ووازع الدين تُربّيه العقيدة وتثمره وتصله الشريعة وتنميه ، وفى ظله يتم صلاح القلب الذى يترتب عليه صلاح كل عمل يقوم به الإنسان كما جاء فى الحديث.. « إلا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب».

وقد نطلق عليه اسم « الدينى» ، ولذا فمن الواجب توضيح الفرق بينه وبين الضمير العام الذى سبق الكلام عنه وأنه يصدر عن الهوى ، فالوازع الدينى أو ما يشار إليه بالضمير الدينى أحيانًا هو الذى لا يصدر فى حسه وفعله إلا عن العقيدة والشريعة نابعًا من القلب الذى هو محل النية والتصديق وتبرهن عليه الأعمال الصالحة التى مبعثها شريعة الله . ومن هنا كان القلب الصالح السليم إحساسه الصادق وحاسته المرهفة التى أشار إليها الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله : استفت قلبك وإن أفتاك الناس

وأفتوك » . وأشار أيضًا فى قوله صلى الله عليه وسلم : « البر حسن الخلق والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس» [**رواه مسلم**].

ونحن إذا انتقلنا إلى واقع الحياة لنرى بعض الأمثلة والنماذج التطبيقية ندرك الفرق واضحًا بين وازع الدين وبين ما يدعيه البعض من إرضاء الضمير.

فى كثير من المجتمعات عند وقوع عقوبة من العقوبات أو تطبيق بعض القوانين يستطيع بعض الناس أن يفلت من القانون أو يحاول التهرب منه، خشية الوقوع تحت طائلة العقاب ، وربما إذا نوقش إنسان أحدث مخالفة من المخالفات أو قصر فى واجب من الواجبات أجاب بأنه قد قام بما قام به عن اقتناع ، وأنه قد أرضى بذلك ضميره ، وقد لا يكون على حق ولكنه يحاول تبرير الموقف بما يتفق مع هواه وبما يتمشى مع ما يريد بغض النظر عن أى اعتبار آخر . فأين هذا الضمير من وازع الدين الذى كان يدفع البعض حين يرتكب ذنبًا ليأخذ عقابه ويطلب إقامة الحد عليه.

عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن ماعز بن مالك الأسلمى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إنى قد ظلمت نفسى وزنيت وإنى أريد أن تطهرنى . فلما كان من الغد أتاه، فقال : يا رسول الله إنى قد زنيت، فرده الثانية ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قومه ، فقال : أتعلمون بعقله بأسًا تنكرون منه شيئًا ؟ قالوا : ما نعلمه إلا وفى العقل من صالحينا فيما نرى، فأتاه الثالثة، فأرسل إليهم أيضًا فسأل عنه. فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله ، فلما كان الرابعة حفر له حفرة ثم أمر به فرجم . قال : فجاءت الغامدية، فقالت : يا رسول الله إنى قد زنيت فطهرنى ، فردها . فلما كان الغد قالت : يا رسول الله لم تردنى لعلك أن

تردنى كما رددت ماعزًا، فوالله إنى لحبلى، قال : إما لا فاذهبى حتى تلدى ، فلما ولدت أتته بالصبى فى خرقة قالت : هذا قد ولدته . قال: اذهبى فأرضعيه حتى تفطميه ، فلما فطمته أتته بالصبى فى يده كسرة خبز ، فقالت: هذا يا نبى الله قد فطمته وقد أكل الطعام ، فدفع الصبى إلى رجل من المسلمين ، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها، فيقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجه خالد فسبها، فسمع نبى الله صلى الله عليه وسلم سبه إياها فقال : مهلاً يا خالد فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لوتابها صاحب مكس لغفر له ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت [رواه مسلم]

وحياة المجتمعات البشرية مليئة بنماذج تطبيقية وأمثلة واقعية يتضح من خلالها الفرق الشاسع بين سلطة الدين ووازع الدين وبين السلطة القانونية .

ومن الأمثلة كذلك القوانين الضريبية التى تسنها بعض الدول ، وبعض المجتمعات على كثير من الناس من أصحاب الأعمال والأموال ، وعلى بعض المؤسسات والشركات والمصانع وغير ذلك .. مما يلتزم به بعض الأفراد وبعض الجماعات ، ولكننا كثيرًا ما نلاحظ أن الكثير من الناس ـ أفرادًا وجماعات ـ يتهربون من تلك الضرائب ويحاولون أن يتحايلوا على تلك القوانين وليس هناك من ضمير يدفع ولا رقيب من داخل النفس يحاسب.

فأين هذا من وازع الدين ومن سلطان الشريعة وأثرها ودوافعها ، هذا الوازع الدينى الذى يدفع الإنسان المسلم إلى أن يدفع زكاة ماله طيبة بها

نفسه، مسارعًا بإعطاء أصحاب الحقوق والمحتاجين ، بل ومؤديًا أكثر مما وجب من المال صدقه زائدة وعطاء زائدًا وإنفاقًا فى سبيل الله .

فى جو القوانين الوضعية وفى مسايرة الضمير الدنيوى المختلف يفتقد عنصر المراقبة ، فيستخفى الناس من بعضهم لئلا ينكر أحد عليهم لكنهم لا يستخفون من الله كما قال تعالى :﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطا ﴾ [النساء ١٠٨]

وأما فى ظل الوازع الدينى فإن المؤمنين المخلصين يراقبون ربهم فى كل أعمالهم سرًا وعلانية لا يعنيهم أن يراهم الناس، لأنهم لا يراءون الناس، وإنما يعنيهم رضا الله تعالى وحده فهم يزيدون فى أعمالهم وينفقون سرًا ويبادرون إلى كل خير ، ويسارعون إلى كل مكرمة، شعارهم قوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة ١٠٥] .

حقيقة الحياة

تختلف نظرة الناس إلى الحياة باختلاف مطامعهم فيها، وما يطمحون إليه من أموال وأولاد ، ومن منصب أو جاه ، ومن قوة وعافية وتتوالى خطاهم فى دروب الحياة وتشرئب أعناقهم متطلعة وتشخص أبصارهم ، وهكذا كل ينظر إلى الحياة من زاويته الخاصة وتتعلق آماله بما ليس في يديه . ولا تتطلع إلى ما فى يديه ، فإذا رأى غيره مثلاً أكثر منه فى جانب من جوانبها رغب أن يكون مثله ، وإذا صار مثله رغب فى أن يكون هو أعظم من ذلك، وتظل تتوارد الآمال وتتضاعف دون انتهاء.

والطموح الأمين النزيه لا حرج فيه ما دامت طرقه مشروعة ووسائله كريمة . أما حين يكون ضربًا من الطمع الفاحش .. وتطلعًا ممقوتًا إلى ما فضل الله به بعض الناس على بعض ، وبما قسمه بينهم فى أمر معاشهم ، فليس ذلك من الإسلام فى شيء ولا أثر له فى حقيقة الحياة إلا الحقد الذى لا يتولد منه إلا الحسرة التى يورثها.

ومن هنا كانت تعاليم الإسلام فى هذا الجانب حاسمة وواضحة ، ونظرة الإنسان إلى من هو أقل منه أجدى فى الاعتبار .

وفى باب الشكر: من نظرته إلى من هو فوقه ، فنظرته إلى من هو فوقه تورثه الندم والتحسر ربما يتولد عنها الحقد واستقلال النعمة وعدم الشكر المنعم .. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: « لا تنظروا إلى من هو فوقكم وانظروا إلى من هو أسفل منكم فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم ».

والحديث الشريف بهذا التوجيه الحكيم يعالج جانبًا نفسيًا هامًا له أثره على حقيقة الحياة فى كل مجتمع وفى كل مجال.

ولا يمكن لمن تعمق فى مغزاه أن يشم منه من قريب أو من بعيد أن فيه دعوة لقعود الهمة أو الرضا بأدنى الأمور وأقل الحياة .. كلا.. بل إن فيه توجيهًا إلى ما يجب على الإنسان المسلم حيال ما أنعم الله تعالى به عليه من نعم سابغة . وآلاء ظاهرة وباطنة ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم ٣٤] وإن واجب الإنسان المسلم أن يقدر النعم التى أنعم بها عليه وأن يشكر ربه عليها آناء الليل وأطراف النهار ، وأولها وأجلها نعمة الإسلام وكفى بها نعمة.

ولقد جاء الأمر الإلهى للجماعة المؤمنة واضحًا وكاشفًا لهم ما تكون به حقيقة الحياة وما يسعدهم وما يحييهم .

قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْض تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [**الأنفال ٢٤-٢٦**]

ففى هذه الآيات نادى الله تعالى المؤمنين موجهًا أمره إليهم بالاستجابة لله وللرسول ، وذلك بالطاعة فيجب على الذين آمنوا أن يطيعوا الله والرسول ، ونلاحظ فى التعبير القرآنى الحكيم أنه أفرد الضمير فى قوله إذا دعاكم ولم يأت بضمير التثنية الذى يفيد دعوة الله ودعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إشارة إلى أن طاعة الله فى طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

قال الله تعالى : ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النساء ٨٠] . إنه أمر بالاستجابة والطاعة إذا دعاهم لم يحييهم فإن فى الدين حياة النفوس .. وحياة القلوب ، فإن القلب يحيا بمعرفة أمور دينه ويموت بالجهل بها.

وقيل : المراد القرآن الكريم، فإن فيه النجاة والبقاء والحياة ، ثم يقول سبحانه : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [**الأنفال ٢٤**] .

وقال ابن عباس : يحول بين المؤمن وبين الكافر . وبين الكفر وبين الإيمان فهو سبحانه يطلع على ما تكنه القلوب.

وفى هذه الآية الكريمة حض وتوجيه من الله سبحانه إلى أن يسارعوا إلى إخلاص القلوب وتصفيتها .. قبل أن يحول الله بين الإنسان وبين قلبه بالموت.

أو أن الآية تصوير لقدرة الله تعالى على العبد وعلى قلبه، فيحول بين العبد وبين الكفر إن أراد له السعادة ويحول بينه وبين الإيمان إن أراد له الشقاء .

وأنه إليه تحشرون فيجازى كل نفس بما قدمته يداه إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر . وفيما رواه الإمام أحمد بسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « إن قلوب بنى آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن ، كقلب واحد يصرفها كيف يشاء » ثم قال صلى الله عليه وسلم: « اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك ».

من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان يكثر منه « اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » ولطالما ذكر القرآن الكريم الأفراد والجماعات بنعم الله عليهم ، فهو يذكر بما كانوا عليه ليكون فى هذا اليقين بخير ما يدعوهم إليه وبما فيه حياتهم وسعادتهم ، فبعد أن ناداهم وأمرهم أن يستجيبوا لله ولرسوله ، وبعد أن حذرهم وأنذرهم من الوقوع فى الفتنة أخذ يذكرهم بما كانوا عليه من قلة فى العدد وضعف فى الأرض وخوف من العدو .

فقد كانوا فى بادئ الأمر قلة مستضعفة يخافون أن يتخطفهم الناس من كفار قريش ، أو من عداهم ، فتداركتهم عناية ربهم فآواهم إلى المدينة فتحصنوا عن أعدائهم وأيدهم بنصر من عنده وأمدهم بالملائكة ورزقهم من

الطيبات عن طريق الغنائم رجاء أن يشكروا ربهم الذى وهبهم هذه النعم التى لا تحصى .

وهكذا تتساوق المبادئ الإسلامية الراشدة موجهة أفراد الأمة جماعتها إلى حقيقة الحياة.

إنها توجههم إلى حقيقتها بأساليب محكمة وأمثلة قوية واقعية راسمة لهم منهج الحياة التى يسعد فيها الفرد والمجتمع ، إنها حياة تقوم حقيقتها أولاً وقبل كل شىء على الإيمان والعمل ، وعلى اليقين المطلق بواهب النعم وخالق الكون، ومن منطلق هذا اليقين يتجه أبناء الحياة إلى كل دروبها وليس على عينهم عصابة. ولا فى قلبهم غشاوة بل يتجهون مخلصين آمنين.

إنما الدنيا لأربعة نفر

المسلم كيس فطن يدرك حقيقة الحياة ويعرف موقعه منها ثم يصرف أموره وأحواله بما يتواءم مع شريعة الله ، ولا يختلف مع الدين .. ولا يتصادم مع نظم الحياة الجادة المستقيمة.

والإنسان المسلم فى هذه الحياة لا يعيش لنفسه ولكنه يعيش متعاونًا مع الغير ، والغير متعاون معه فهو اجتماعى بطبعه.

والناس فى هذه الحياة يحتاج بعضهم إلى بعض ، ومن قصور التفكير أن يظن البعض أن غيره هو المحتاج إليه وأنه غير محتاج إلى أحد.

كيف ؟ وطبيعة الحياة أخذ وعطاء ، والتكوين الإلهى للجماعات البشرية على ظهر هذه الحياة أنهم درجات بعضهم فوق بعض.

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف ٣٢] .

وهذه الحكمة الإلهية بها تنهض الجماعات ، ويكدح الناس فى الحياة وتعمر بهم الأرض.

وكما أن الإنسان محتاج إلى عمل يكسب من ورائه ومحتاج إلى مال ينفق منه ومحتاج إلى صاحب العمل، فإن صاحب المال محتاج لهذا العامل ، ولولا هذا العامل ما كان لصاحب العمل ماله ولا تحصيل ربحه ، ولا إدارة عمله الذى يدر عليه هذا الربح.

بل إن الإنسان كثيرًا ما تعترضه مواقف يحتاج فيها إلى أبسط الأعمال وأقل المهن التى لا ينظر الناس إليها بعين الإكبار والتقدير، بل ربما ينظرون إلى بعض الأعمال البسيطة والمهن غير البراقة نظرة غير كريمة.

ولكنهم فى الحقيقة إذا راجعوا أنفسهم وقت حاجاتهم الملحة إلى هذه المهن وتلك الأعمال عرفوا قيمتها وأدركوا أهميتها ، وعلى كل إنسان أن يدرك دوره فى الحياة والطريقة المثلى لتسيير دنياه.

وضروب الناس متفاوتة فى الدنيا وحظوظهم متنوعة . فمنهم من أوتى حظًا من العلم والمال:

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهمو لم يبن ملك على جهل وإقلال

ومن الناس من أوتى علمًا ولم يؤت مالاً ، ومنهم من أوتى مالاً ولم يؤت علمًا . ومنهم من لم يؤت مالاً ولا علمًا . إنهم أربعة نفر .. وقد جاء

تفصيلهم فى السنة الشريفة علـى صاحبـها أفضـل الصـلاة والسـلام. ففيمـا أخرجه الترمذى : عن أبى كبشة الأنصارى قال: قال رسول الله صلـى الله عليه وسلم: ثلاثة أقسم عليهن . وأحدثكم حديثًا فاحفظوه : ما نقص مـال من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزًا، ولا فتح عبـد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر».. وزاد فى روايـة : « ومـا تواضـع عبد لله إلا رفعه الله » وأحدثكم حديثًا فاحفظوه ، إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالاً وعلمًا فهو يتقى فى ماله ربه ويصل به رحمه، ويعلم أن لله فيه حقًا فهذا بأفضل المنازل . وعبد رزقه الله علمًا ولم يرزقه مـالاً فـهو صادق النية يقول : لو أن لى مالاً لعملت عمـل فـلان فـهو بنيتـه فأجرهمـا سواء ، وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علمًا فهو يخبط فى ماله بغير علـم ، لا يتقى فيـه ربـه ولا يصـل فيـه رحمـه ، ولا يعلـم لله فيـه حقًـا ، فـهذا بأخبث المنازل ، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علمًا، يقـول : لـو أن لى مـالاً عملت فيه بعمل فهو بنيته ووزرهما سواء.

والناس فى حياتهم أحد فريقين :

فريق: هم طلاب الدنيا يجعلونها همهم ومنتهى مقصدهـم فـهم يبحثـون عنها فى كل الدروب ويجرون وراءها فى كـل اتجـاه ، وربمـا كـانوا عنـها بعيدين وكانت بعيدة ،-وكلما جروا خلفها جرت هى أمامهم فلا يلحقونـها ولا ينالون منـها إلا مـا قسـمه الله لهـم ، وفريـق آخـر هـم طـلاب الآخـرة جعلوها همهم وشغلهم الشاغل حتـى وهـم فـى أعمـالهم الدنيويـة جعلوهـا خالصة نقية لم تشبها شائبة ما ، أولئك أغنـى الله قلوبـهم وأتتـهم الدنيـا راغمة.

عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه وجمع عليه شمله ، وأتته الدنيا وهى راغمة . ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له فلا يمسى إلا فقيرًا ، ولا يصبح إلا فقيرًا ، وما أقبل عبد على الله بقلبه إلا جعل الله قلوب المؤمنين تنقاد إليه، بالود والرحمة وكان الله بكل خير إليه أسرع » [رواه الترمذى] .

وقال عمر رضى الله عنه : ما كانت الدنيا هَمَّ رجل إلا لزم قلبه أربع خصال : فقر لا يدرك غناه ، وهَمٌّ لا ينقضى مداه ، وشغل لا ينفد أوله وأمل لا يبلغ منتهاه.

وتلك حقيقة لها من واقع الحياة أمثلة كثيرة ونماذج وافرة ، فنحن نشاهد من كانت الدنيا همه فى فقر دائم .. وربما تساءل - قارئى العزيز - كيف يتأتى هذا وهو غنى ؟ وكيف يكون فى فقر وهو ذو مال؟ ولكنك حين تلقى نظرة عابرة على صفحة المجتمعات الإنسانية ترى من الناس من يريد أن يضيف إلى ماله أموالاً ويحرص على عدم نقصانها ويجتهد فى زيادتها.

ومن أجل هذا فهو لا ينفق منها وإنما يكنزها ولا يتمتع بها وإنما يضن بها على نفسه وأهله ورحمه والفقراء والمحتاجين فهو فى فقر بيد أن المال بين يديه.

وأما الهَمّ الذى لا ينقضى فهو فى شغل شاغل وراء جمع ثروته وما يخشى أن يضيع منها وما يجب أن يضاف إليها لتنمو ، وما تشابك به مصالحه مع مشاغله ومتاعبه وهكذا ، فهو فى شغل لا ينفد ووراء أمل لا يبلغ مداه، لأن طالب الدنيا لا يشبع ، ولو كان لابن آدم واد من ذهب

لتمنى أن يكون له الثانى ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب .

تلك حقيقة لا يمارى فيها أولو الألباب . ولكن ليس معنى هذا أن الإسلام لا يدعو إلى السعى والعمل .. لا .. بل إن الإسلام هو دين العمل والسعى والتمتع بطيبات الحياة الدنيا.

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قلنا يا رسول الله ما لنا إذا كنا عندك رقت قلوبنا وزهدنا فى الدنيا وكانت الآخرة كأنها رأى عين، وإذا خرجنا من عندك فعافسنا أهلينا وشممنا أولادنا أنكرنا أنفسنا، فقال صلى الله عليه وسلم : « لو تدومون على حالكم عندى لزارتكم الملائكة فى بيوتكم ، ولصافحتكم فى طرقكم ، ولو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بخلق يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم . ساعة وساعة ».

والحديث يدعو آخره إلى التوبة وليس إلى الاستهانة بالذنب ، فليس معنى، ولو لم تذنبوا . فتح طريق الذنب لا ، وإنما المراد فتح باب التوبة، وإعطاء الفرصة والأمل لمن ضلوا أن يثوبوا إلى رشدهم وأن يتوبوا إلى الله ، وأن يكونوا على اتصال دائم به سبحانه وتعالى ، هذا مع سعيهم فى الحياة وكدهم وجدهم وتعبهم ونصبهم ، فهم يعملون لدنياهم كأنهم يعيشون أبدًا ويعملون لآخرتهم كأنهم يموتون غدا.

ومن كلام على بن أبى طالب رضى الله عنه : لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ويؤخر التوبة لطول الأمل ويقول فى الدنيا بقول الزاهدين ويعمل فيها بعمل الراغبين. إن أعطى منها لم يشبع وإن منع لم يقنع ، يعجز عن شكر ما أوتى ويتمنى الزيادة فيما بقى . ينهى ولا ينتهى ويأمر بما لا يأتى

، يحب الصالحين ولا يعمل أعمالهم ويبغض المسيئين وهو منهم ، يكره الموت لكثرة ذنوبه ويقيم على ما يكره الموت له ، إن سقم ظل نادمًا وإن صح أمن لاهيًا ، يعجب نفسه إذا عوفي ويقنط إذا ابتلى ، تغلبه نفسه على ما يظن ولا يغلبها على ما يستيقن . ولا يثق من الرزق بما ضمن له ولا يعمل من العمل بما فرض عليه، إن استغنى بطر وفتن ، وإن افتقر قنط وحزن . تلك طبيعة الإنسان وهى فى حاجة دائمة إلى إصلاح وتقويم وتهذيب وصقل . وتسليم بالإيمان بالله واليوم الآخر.

مسئوليات الإنسان المسلم

قدر الإسلام قيمة الوقت ونبه إلى أهميته ، والمتتبع للنظم الإسلامية يدرك إلى أى مدى كان حفاظ الإسلام على الوقت ، وكانت حيطته البالغة، بحيث لا يتعرض للتهديد أو الضياع ، فقد حدد الإسلام مواقيت زمنية لعبادته وكلها تدل على النظام المحكم الدقيق وعلى احترام الوقت وتنسيق فتراته ، فالفروض الخمسة أوقاتها من الفجر إلى الظهر إلى العصر إلى المغرب إلى العشاء وكلها أوقات تحددت بالوحى الإلهى ولها بداية ونهاية بحيث إذا انتهى وقت من هذه الأوقات لا تقع العبادة فيها أداء . وإنما تكون قضاء لأن وقتها المحدد لها شرعًا قد فات.

وللصيام وقته الزمنى العام المحدد ووقته اليومى الخاص المحدد من الفجر إلى غروب الشمس . وللزكاة وقتها كذلك ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام١٤١] . ولزكاة المال وقتها عندما يحول على المال الحول ، ولفريضة الحج ميقاتها الزمنى ، المحدد بشوال وذى القعدة وذى الحجة .

والإنسان المسلم مسئول عن الوقت مسئوليته عن كل شيء آخر ، ومحاسب عليه ، كأى نعمة أخرى من النعم الإلهية التى منحها الله تعالى إياه، ففيما رواه الترمذى: يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن علمه ماذا عمل فيه ».

إن العمر الذى يعيشه الإنسان على ظهر هذه الحياة مسئول عنه ، إنه مسئول عن أيامه وأعوامه وعن سائر أوقاته فيم أفنى هذه الأوقات ، هل أفناها فى الطاعة أم فى المعصية ، هل أفناها فى العمل الجاد ، والسعى على المعاش وما ينفعه وينفع الناس والمجتمع أم لا ؟

إن كثيرًا من الناس إذا ذهبوا إلى أعمالهم أو مصالحهم يؤدون بعض العمل، ويتوقفون عن أعمال كثيرة مطلوب منهم أداؤها ، وتوقفهم هذا وإهمالهم، قد يكون بسبب ، وقد يكون بلا سبب ، فمنهم من يتوقف عن العمل الواجب عليه فى مصلحته وموقع عمله بسبب أنه غير منسجم مع رئيسه فى العمل أو أنه على غير وفاق مع بعض رفاقه وزملائه . فإذا ما ذهب إليه بعض أصحاب الحاجات والمصالح الذين ينتظرون إنجازها لم يجبهم الإجابة الشافية وقد يرجئهم إلى الغد أو ما بعده . وقد يحيلهم إلى غيره .. وهكذا من الأساليب والحيل التى يصرف بها صاحب المصلحة أو الحاجة دون جدوى.

وهذا الضرب من الناس يقتل وقتًا يتقاضى عليه أجرًا فى الدنيا ، وهذا الأجر أو ذلك المال الذى يتقاضاه غير حلال ، وليس مالاً طيبًا بل إنه كمن

يأكل أموال الناس بالباطل وهو إن خفى أمره على العباد فلا يخفى على رب العباد الذى يعلم السر وأخفى .. والذى يعلم ما تبدون وما تكتمون.

وليس عدم انسجامه أو وفاقه مع الآخرين مبررًا له لأن يؤخر عمله، ويهمل فى واجبه ، ويضيع وقتًا ثمينًا من الحياة . وهناك نوع آخر من الناس يقتل الوقت وينصرف عن عمل الواجب بسبب أنه يسعى لمصلحة خاصة ، أو أنه كان فى مهمة خاصة به ، ومثل هذا النوع وإن كان قد شغل الوقت بعمل إلا أنه عمل فى غير وقته المشروع له، فلا يصح أن تطغى المصالح الشخصية . ففى هذا ضياع لحقوق المجتمع وحقوق غيره من الناس وهذا الضرب من الناس ممكن أن نسميه سارق الوقت ، أو نسميه المختلس المقنع. نعم إنه سارق الوقت والسرقة ليست خاصة بالمال أو المتاع ولكنها تشمل الوقت كذلك ، لأنه اختلس من أوقات العمل ، ومن وقت المصلحة العامة ، واستغل ذلك لنفسه وشخصه ، ومثله كمثل السارق والمختلس تمامًا بتمام.

وهناك نوع آخر من الناس يتوقف عن عمله ويهمله لا لسبب من الأسباب إلا الكسل والخمول ، والركون إلى الراحة والدعة ، ومحاولة قضاء وقت العمل فى احتساء ما تشتهيه نفسه من المشروبات أو مطالعة ما يستهويه من الصحف والمجلات ومحادثة رفاق العمل فى أحاديث شتى بغية التسلية ، وقضاء الوقت حتى موعد الانصراف الرسمى من العمل.

وهذا الضرب من الناس ظالم لنفسه وإخوانه ومجتمعه ومعتد أثيم . إنه لا يراقب ربه فى عمله ولا يراقبه فى المال الذى يتقاضاه ، وكيف له أن يستحل أخذ شىء لم يؤد له مقابلاً من العمل.

إن الإسلام يرفض كل هذه الأنواع ويدعو إلى محاربة الكسل والإهمال والنفعية .. إن أصحاب الأنواع الثلاثة السابقة : استبدت بهم ثلاث آفات :

الآفة الأولى: هي الإهمال، والآفة الثانية : هي المصلحة الشخصية وطغيانها على المصلحة العامة ، والآفة الثالثة: الكسل والخمول .. ونحن إذا ألقينا النظر على تعاليم الإسلام نجد أنه قد حارب تلك الآفات ، وحذر منها أشد التحذير ، ففيها ضياع للوقت دون فائدة ، وقتل للزمان دون جدوى ، فقد حارب الإسلام « الإهمال » وأمر بإتقان العمل والإخلاص فيه ، وإحسانه وتجويده ، وفي الحديث :« إن الله يحب إذا عملاً أحدكم عمل أن يتقنه » وحارب الإسلام طغيان المصلحة الشخصية على المصلحة العامة، كما حارب الكسل والخمول، ودعا إلى العمل الجاد، وإلى النشاط وحسن العمل لأن الله مطلع ورقيب، وهو سبحانه القائل: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُون ﴾ [التوبة ١٠٥] .

الإنسان المسلم في بوتقة الاختبارات

من أهم الملامح لشخصية المسلم الثبات في العسر وفي اليسر ، أن المسلم شاكر في السراء صابر في الضراء ، يبرهن على صدق عقيدته بالإنفاق في الحالين : يقول الله تعالى في وصف المتقين : ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [آل عمران ١٣٤] .

إن شخصية المسلم لا تهتز بالعسر ولا تقنط بالضراء ، كما أنها لا تضل ولا تطغى باليسر أو السراء وإنما هي في الموقفين سواء ، وهذا شأن المسلم

الذى قويت عقيدته وآتت أكلها وثمارها ، إنه شاكر فى السراء، صابر فى الضراء، قال صلى الله عليه وسلم : « عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك إلا للمؤمن .. إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له ».

إن للمسلم خطاه الثابتة التى يسير بها ومعه يقين يضىء له الطريق، وثقة لمشاهدها العديدة حازمة حاسمة لا يشده بريقها ولا يخدعه زخرفها .

إن حياة المسلم متصلة الحلقات من الابتلاءات والاختبارات ، فمنها ما يكون ابتلاء بالنعمة، ومنها ما يكون بالنقمة وتلك سنة الله فى خلقه، والعزائم المخلصة ذات المعادن الأصيلة حين تنصهر فى بوتقة الابتلاء بالبأساء والضراء تخرج وهى أشد عزمًا وأقوى إرادة وأكثر بريقًا ولمعانًا وعندئذ يأتيها نصر الله :﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلاَ إنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ [**البقرة ٢١٤**].. وموقف السلف من محن الحياة وابتلائها موقف الحريص على عقيدة المؤمن بقضاء ربه ، الواثق من الفرج والمثوبة : يقول أحدهم : وما أصبت فى دنياى بمصيبة إلا رأيت لله فيها ثلاث نعم ، أنها لم تكن فى دينى وأنها لم تكن أكبر منها وأننى أرجو ثواب الله عليها.

أما شخصية الإنسان التى لم تتهذب بالإسلام ولم تصقل بمبادئه القويمة فهى فى تطلع إلى فضل الله ورجاء ملح لنعمته إذا نزل الضر ، فإذا رفعه الله ، وأحاطت النعمة جوانب الحياة فإنه فى حال النعمة ينسى حق الله وحق العباد ، لقد خيمت على شخصيته الأنانية، وملأت الأثرة أقطار

نفسه ، فلا ينظر للحياة إلا بمنظار المنفعة الخاصة ، يدور معها حيث تدور، ويبحث عنها فى كل مكان لا يعنيه شىء سوى منفعته ، وفى إطارها الضيق يعيش وفى جو خانق ومناخ لا يستقر.

إن الطبيعة البشرية فى صراعها الرهيب وفى رغبتها الجامحة لمتطلبات حياتها تظل خطاها تلح فوق الدروب المتشابكة بغية الوصول إلى أملها وهدفها وتضع على مفترق الطرق أمنيات رطبة خضراء لو تحقق ما تصبو إليه النفس أو جاء ما يهفو إليه الإنسان لملأ ببره كل المسالك، فكان وصولاً للرحم بارًا بالمحتاجين سباقًا للبذل فى الملمات ساعيًا لقضاء مصالح الناس محبًا ودودًا لكل القلوب.

لكنه عندما يتحقق رجاؤه ويستجاب دعاؤه وتسير حياته متدفقة بالنعمة والخير ينسى ما اعتزم عليه ولا يأبه بمن مد يده إليه ، ومن هنا تتعالى نداءات الإسلام موجهة إلى شكر الله الذى أنعم ودافعة إلى النظر بعين الاعتبار إلى تلك النعم التى لا تحصى . وتتوالى تعاليم الإسلام فى إرساء قيم الحق وصقل الشخصية الإسلامية وتهذيبها وعلاجها من ذلك الضعف الروحى والتمزق النفسى ، وذلك بالصبر والعمل الصالح والانطلاق من قاعدة العقيدة الصحيحة التى تشرق الحياة منها رخاء آمنة.

وإذا كان الصبر وعمل الصالحات من وسائل صقل النفس وتربية . الشخصية فإن هناك علاجًا آخر لروحه ولقاء طيبًا يتم فيه تخلص الإنسان من هلعه وجزعه ، ومن جحوده ومنعه ، ذلك هو لقاء الله تعالى فى الصلاة التى تتكرر كل يوم مذكرة وموجهة فى كل ركن من أركانها بأن الله أكبر من كل شىء ، وكذلك فى البذل والإنفاق، وفى التصديق بيوم الدين

والخوف من الله والعفة ومراعاة الأمانة والقيام بالشهادة . وكل هذه الأمور يلفت القرآن النظر والقلب إليها لتقويم الشخصية وتنقيتها من الهلع والجزع والجحود .

إن شخصية المسلم الحقيقية تملى عليه أن يتعرف على ربه فى وقت الرخاء، كما يتعرف عليه فى وقت الشدة ، ومن كان كذلك فهو صادق الإيمان يستحق تيسير الله له وتفريجه لهمومه، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة » .. وفتح الله سبحانه أبواب رحمته ونادى عباده إليها وبين أنه قريب منهم يجيب دعاءهم ويحقق رجاءهم وعليهم أن يستجيبوا لما يحييهم ويقوموا بأصول الإيمان الحق.

مشكلات أعجزت العلم وحلها الإيمان

كان للعلم الحديث أثر بالغ فيما قدمه إلى الحضارة الإنسانية من خدمات، وفيما بذله من عناصر ومقومات ، كان له أثره كذلك فيما اكتشفه واخترعه من أشياء قربت البعيد ، واختصرت المسافات ، ووفرت الزمن وقدمت للإنسان المعاصر العديد من أسباب الراحة ومظاهر السعادة.

ولكن كل ما قدمه العلم الحديث إنما هو فى شكل الحياة وليس فى داخلها، وفى مظهرها وليس فى مخبرها ، بمعنى : أنه قدم تلك الأسباب المادية التى تعين الإنسان فى حياته ، وفى مختلف شئونه وأموره ووظائفه، بيد أنه لم يستطع أن يدخل إلى الأعماق الإنسانية أو أن يعالج

النفس البشرية من تلك المخاوف التى ازدادت أشبحاها مع العلـم الحديـث ، وتعددت تعدد نظرياته واكتشافاته.

إننا فى هذا لا ننكر العلم الحديث جمله ، ولا نرفضه جملة، ولا نعـول عليـه وحـده ، أمـا أننـا لا ننكـره ، فلأنـه قـائم بيننـا بنظرياتـه وأدواتـه وعياداته ومصانعه واكتشافاته واختراعاته التى قدمت خدماتها للإنسـان ، والإنسان محتاج دومًا إليها.

ثم لأن الإسلام هو دين العلم، لا يتعارض معه بل يدعـو إليـه ولا يـهون من شأنه بل يكبره .

ولهذا فنحن لا ننكره ولا نرفضه بالجملة ، وإنما نرفض أن يعول الناس عليه وحده وأن يكون هو الموجه وحده للحياة الإنسانية.

ومما لا شك فيه أن التعويل عليه وحده ، ضرب من الإسراف فى القول والبعد عن الجادة وضيـاع وتغريـب، لأنـه مـازال عـاجزًا أمـام العديـد مـن المشاكل التى لم يجد لها حلاً ، والتى حاول أصحابـها اقتحـام لجـة علـم النفس فأغرقهم بدل أن يحل مشاكلهم.

وإذا كان الطب الحديث استطاع تقديم العديـد مـن العـلاج للعديـد مـن الأمراض فإن هناك أمراضًا كثيرة مازال الطب الحديـث عـاجزًا عـن تقديـم العلاج لها.

ومازال سر الحياة والموت وكيفية الموت وأمور كثيرة ، لم يزل العلم واقفًا أمامها دون جدوى.. معنى هذا أنه لا يعول عليه وحده.. ولكن هنـاك قـوة

أكبر منه ، وأعظم أثرًا هى قوة العقيدة ، والإيمان بـالله . ومـع هـذه القـوة الإيمانية تختفى بادئ ذى بدء كثير من المشاكل والمتاعب والألغاز .

إن المؤمن لا يخاف ، ولا يجـبن ، ولا يكـذب ولا يغـش ولا يحتـال ، والمؤمن لا يؤذى جاره ، والمؤمن يقول الحق والخـير ، والمؤمـن صـادق فـى القول ، مخلص فى العمل ، وفىّ بوعده أمين على ما اؤتمن عليه .

والإيمان هو الذى يمكن صاحبه من مواجهة المشاكل العديـدة والكـوارث الفادحة التـى لا يمكـن للعلـم أن يقـدم فيـها شـيئًا .. إن حـوادث الحيـاة المتكررة من غرق وحرق وزلازل وبراكين وأمثال ذلك كثير، ماذا يقـدم العلـم لأصحابها وللمحيطين بهم ؟ لا شـىء . أمـا الإيمـان ففـى صيدليتـه جـزاء للصابرين ، ودعوة صادقة للصبر وعلاج للنفس مـن الجـزع والفـزع والهلـع وأخذ بيد الإنسان إلى شاطئ الأمان.

ومن أجل هذا نقول: إن العلم الحديث والطب الحديث وعلم النفس فى أمس الحاجة إلى الإيمان وبدونه لا يستطيع العلم أن ينجح فى علاج النفس البشرية ولا أن يدفع عنها ما يساورها من شكوك ، ولا ما يحيـط بـها مـن مشاكل لا تنتهى ولا حلول لها.

يقول « ديل كارينجى » : إنى لأذكر الأيام التى لم يكـن للنـاس فيـها حديث سوى التنافر بين العلم والدين ، ولكن هذا الجـدال انتـهى إلى غـير رجعة فإن أحدث العلوم ـ وهو الطب النفسى ـ يبشر بمبادئ الدين ولماذا؟.

لأن أطبـاء النفـس يدركـون أن الإيمـان القـوى ، والاستمسـاك بـالدين والصلاة كفيلة بأن تقهر القلق والمخاوف والتوتر العصبى ، وأن تشفى أكـثر

من نصف الأمراض التى تشكوها. نعم إن أطباء النفس يدركون ذلك ، وقد قال قائلهم الدكتور« أ. ايريل » : إن المرء المتدين حقًا لا يعانى مرضًا نفسيًا أبدًا.. وإذا كان المؤمن يحيا فى أمن وطمأنينة ، فإن غير المؤمنين من الملاحدة والمنحرفين يحيون فى مخاوف دائمة.

وفرق واسع بين المؤمن ونظرته إلى الآخرة وبين غيره ونظرته إليها .

وفرق واسع كذلك بين النظريتين تجاه الموت. فغير المؤمن يخاف الموت ويخشى عواقبه ويرى فيه انتهاء لحياته وانحلالاً لبدنه ، وبطلانًا لتركيبه.

وأما المؤمن فيرى أنه ينتقل إلى ربه الذى خلق فسوى وقدر فهدى، وخلق الموت والحياة والنشور .. ويشير ابن مسكويه إلى الأول فى قوله : « إن الخوف من الموت ليس يعرض إلا لمن لا يدرى الموت على الحقيقة ، ولا يعلم إلى أين تصير نفسه ، أو لأنه يظن أن بدنه إذا انحل وبطل تركيبه فقد انحلت ذاته وبطلت نفسه بطلان عدم ودثور ، وأن العالم سيبقى موجوًدا ، وليس هو بموجود فيه ».. وأما المؤمن فكما لم يخف فى دنياه ، فإنه لا يخاف من آخرته ولا من الموت . وقد قيل لأعرابى اشتد مرضه : إنك ستموت ، فقال: وإلى أين يذهب بى بعد الموت ؟ قالوا : إلى الله .. فقال : ويحكم ، وكيف أخاف الذهاب إلى من لا أرى الخير إلا من عنده؟

إذن ففى الإيمان حفاظ على الإنسان وعلى الحياة من الانقلاب النفسى، والتدهور والضياع ، لأن الذى يؤمن به هو الله الذى أحسن كل شيء خلقه ثم هدى.

والإيمـان فـيه هداية للقلب وهداية للنفس وأمان لها مـن كل المخـاوف ﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَه﴾ [التغابن ١١] .

والإيمان يحفظ لأصحابه حياة طيبة فى الدنيا ، وأما فى الآخـرة فيقـول الله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل ٩٧] .

والمتتبع لنماذج البشر من المؤمنين وغيرهم ، ومن مشـاكل هـؤلاء وأولئـك يتضح له أى مدى كان للإيمان أثره البالغ على حياة الناس ، وكيف حـل مشاكلهم وأخذ بأيدى المجتمعات المؤمنة إلى شاطئ الأمان.

الأستاذ الدكتور

أحمد عمر هاشم



أضــواء
على النفس الإنسانية

الدكتور جمال ماضي أبو العزايم

النفس الإنسانية لطيفة نورانية من صنع الله وهى التى تحرك هيكل الإنسان المادى ، وتبلغ خلايا هيكل الإنسان بلايين الخلايا ، وهذه الخلايا منها العصبية وهى أرق وأدق الخلايا.

وكل خليه لها الغطاء الخارجى المملوء بمادة البروتوبلازم ووسطه النواة التى تحفظ أمشاج الخلية ومعظم هذه الخلايا من الجلد . وهناك أنواع عديدة أخرى من الخلايا الجلدية والعظمية وخلايا أخرى عديدة .

وتسكن النفس كل هذه الخلايا وتتركز الطاقة النفسية فى الخلايا العصبية خاصة أعلى سطح المخ، حيث تقوم طاقة مجموعها بحفظ العينين وينعكس على الشبكية فى طبقاتها المتعددة ، ثم يدخل إلى المجموع العصبى فى مسارات خاصة إلى خلف فصى المخ حيث تتعرف هذه الخلايا التى تغمرها النفس بطاقتها اللطيفة النورانية وتتعرف على أنواع الأضواء والصور المختلفة التى حفظت أشكالها إبان فترة تكوين ورشد الجهاز العصبى.

وتتعرف مجموعات الخلايا على كلتى حانين المخ على الإشعاع النورانى الذى يأتى من ذبذبة طبلتى الأذنين وتدخل إلى الأذن الوسطى والداخلية إلى بيانو قياس درجات ذبذبة الأصوات ، وهناك فى المراكز الصوتية على جانبى المخ تتعرف النفس الإنسانية المنتشرة فى هذا المجموع العصبى على الأصوات وتميزها وتحدد مصدرها .. صنع الله الذى أتقن كل شىء .

وهكذا نرى ونسمع ونتذوق ونحس بالحرارة والبرودة والزمان والمكان والحجم . وهذه الأحاسيس لا نراها ولكن نحسها وهى أحاسيس الإلهام والتصور والتخيل والإبداع، درجات من المعرفة فوق الدرجات الأولى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾

[الشمس ٧-٩]

كل ذلك على قدر التصور الذى أعطاه الحق لنا، ولكن كيف تسير الأضواء فى الأعصاب الإنسانية ، وكيف تسير الأصوات والذبذبات ، وكيف تتأثر المراكز من أنواع من المذاقات دخلت الفم وأنواع من الليكمائيات الطائرة دخلت الأنف، وغير ذلك فهو الإعجاز بعينه، زد على ذلك الأحاسيس التى لا ترى مراكز لها ولكن نحسها ونتحدث عنها وهو الإحساس بالإلهام ، فهذا فضل الله وكرمه اللانهائى.

هذه نقطة من بحر علوم النفس الإنسانية وما أوتينا من علومها إلا أقل القليل، ولكن هذا القليل جدًا معجز ومبدع، وعن طريق المشاهدة العلمية والبحث والتجريب نجده عظيمًا للغاية ، وهاهى ذا الأجهزة العلمية والكمبيوتر تسجل على سطح فروة الرأس ذبذبات كهربائية غاية فى الدقة، وهاهى ذا التسجيلات من على سطح المخ بعد وضع أسلاك خاصة على سطح أعلى خلايا المخ تسجل أيضًا تسجيلات .

وقد تقدم العلم خطوة وبدأ الأطباء يستفيدون من اختلاف التسجيلات ويجدون علاقة بأمراض الجهاز العصبى ، وانفتح الطريق أمام علاقة المادة بالطاقة الروحية النفسية .

وخطوة أخرى بدأ الرجع المغناطيسى يسجل أيضًا ويستفاد من تسجيله وأبحاث أخرى عديدة حول تسجيل الأحداث على سطح المخ وعلى سطح مائة إعجاز فوق الإعجاز . ويعدنا الحق أنه سوف يرينا هذا العلم الخالد . وهذا الخلق الحق فى قوله تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقّ﴾ [فصلت ٥٣] .

والنفس وهى تسكن ذلك الخلق تديره وتحفظه وتسجل علاماته ، ولولا هذا التعايش ما وجد الإنسان، وهى تعيش غاية فى الدقة وغاية فى العظمة والقوة وتبرز الإرادة الإنسانية نتيجة هذا التعايش الخلاق ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ ويهتف الملائكة من الأعماق : ﴿سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة ٣٢] .

القرآن وطبائع النفس الإنسانية

النفس الإنسانية فى طور التكوين:

جاء القرآن مركزًا الأضواء على النفس الإنسانية منذ بدء نشأتها يشير فيها إلى إطار هذه النشأة إبان التكوين فى رحم الأم، فيقول سبحانه : ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾

[الإنسان ١-٣]

والأمشاج هى الأخلاط ، والنطفة متخلقة من أخلاط عديدة من الأم والأب وهو ما يطلق عليه « الكروموزمات » والنطفة وهى تتخلق تنمو فيها أجهزة السمع والبصر وتتخلق هذه وتلك من ملايين الخلايا كل له وظيفته، ومن هذا الخليط تظهر طاقة السمع وطاقة البصر ويخلقه الخالق العظيم كما يشاء ، فالوراثة لها دور والبيئة هى الأخرى لها دور فى تكوين شخصية الإنسان مصداقًا لقوله : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان ٢] .

سمات الشخصية المختلفة :

ويتحدث القرآن فى مواضع مختلفة عن أوصاف النفس الإنسانية وسماتها المختلفة فيقول ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ [البقرة ٢٠٤] .

وقوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [لقمان٦] .

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [آل عمران ٧٥].

وقوله جل شأنه : ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر ٣٢]

التغيرات الجسمية وفلتات اللسان:

وقد جاء القرآن مبيناً اختلاف طبائع الناس واختلاف سمات شخصياتهم ، وبين الطريقة التى يتعرف بها الفاحص لما تخفيه النفوس

عن طريقين : الطريق الأول فى قوله تعالى :

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أن لَّن يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ [محمد ٢٩، ٣٠].

ومعرفة تعبيرات الوجه والأعضاء المختلفة فى المواقف المختلفة، حيث إن الجسم والنفس كليهما يؤثر على الآخر وانفعالات الإنسان تظهرها ملامح الوجه . وحركات العضلات المختلفة، وسيما الفرح غير سيما الحزن غير سيما التعجب غير سيما التبلد غير سيما عدم الاهتمام، وهكذا .

والطريق الثانى : ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد ٣٠].

وفلتات اللسان تنم عما يخفيه الإنسان ولكن لسانه يفضحه ويعكس ما يدور مخبأ فى عقله الباطن.

وقد انبهر علماء النفس المحدثون بما جاء فى كتاب علم النفس للدكتور/ فرويد عما نشر به بخصوص أبحاثه عن فلتات اللسان وكيف أنها تعبر عن خفايا النفس ، ولكن القرآن قد أضاء الطريق أمام الفكر الإنسانى شرقه وغربه لينهل من عذب موارده منذ مئات السنين.

الصراع الداخلى فى نفس الإنسان :

والقرآن يتحدث عن الصراع فى نفس الإنسان ويلقى الأضواء على طاقة اللوم وحب الخير وحب الجماعة ، كما يلقى الأضواء على طاقة الأمر بالسوء والإخلاد إلى الغرائز البهيمية وأن هذا الصراع إما إن يوصل إلى انتصار طاقة الخير فيصبح الإنسان من أهل اليمين .

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة ١٩- ٢١] .

وأما إذا أخلد إلى طاقته وغرائزه البدائية عاصيًا نداء الضمير وهو حينئذ من أصحاب الشمال . ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة ٢٥]

النفس اللوامة :

وفى مواضع عديدة نجد القرآن يتكلم عن النفس اللوامة فى قوله تعالى : ﴿لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة ١،٢]

وهى النفس الواعية التى تقوم باللوم وحفظ القيم والقانون، توجه طاقتها للبعد عن المعاصى : ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات٤١] .

وهذه النفس هى النفس التى عرفت واجبها ومسئوليتها :

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر ٢٧ - ٣٠] .

وهى النفس المستبصرة الواعية :

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾ [الأنعام ١٠٤] .

وهى النفس التى تبغى مرضاة الله :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾ [البقرة ٢٠٧] .

والتى وقاها الله الشح والبخل :

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر ٩] .

وهى التى نجحت فى طريق التزكية والإصلاح :

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس ٧ - ١٠] .

النفس الأمارة :

وهى التى لا حدود لهواها :

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَه ﴾ [الطلاق ١] .

وهى النفس التى أخلدت إلى شهواتها ولم تقو على كبح جماح هواها :
﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوء ﴾ [يوسف ٥٣] .

والتى تنطلق إلى الاندفاع والقتل :

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَه﴾ [المائدة ٣٠] .

والتى تنطلق فى تيار الجنس ، دون حرص على الشرع :

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ﴾ [يوسف ٢٣].

وهى النفس البخيلة :

﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِه﴾ [محمد ٣٨] .

والتى لم تنضج ولم تتطور لتوائم الواقع :

﴿أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ [الأعراف ١٧٦] .

والإنسان فى صراعه المستمر نجده يخلط بين عمل صالح وآخر سيئ على قدر صموده واستبصاره.

﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾
[التوبة ١٠٢]

الصراع الداخلى فى نفس الإنسان :

يهتم القرآن اهتمامًا بالغًا بالتربيـة النفسـية ويضـع مسـئوليات للعـاملين عليها :

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾ [النساء ٩] .

والقرآن وقد رسم لنا طريق معاملـة الأبنـاء وطريقـة تربيتـهم منـذ نعومـة أظافرهم وعندما تتقدم بهم السن وعندما يعملون فى مضمار الحيـاة ويمشـون فى مناكبها ، وعندما يبدأون فى الاستقلال فى أسر جديـدة مـع أزواجـهم وأبنائهم ، إنما يساعد الإنسان على الاسـتقرار والطمأنينـة ويسـاعد النفـس على النضج وعلى السير فى درجات الرشد درجة إثر درجة .

ويحث القرآن على أن نولى الأطفـال كـل اهتمامنـا فـى المراحـل المبكـرة حتى يصلوا إلى الصلح مع الغرائز مبكرًا ، نرى القرآن وهـو يـهتم اهتمامًـا بالغًا بالوصول إلى سن الرشد الدينى مبكرًا حتى يكون السـلوك فـى الحيـاة بعد ذلك مستقرًا بناء ، وحتى يكون الإنسـان قـد روض نفسـه منـذ الصغـر على اتباع تعاليم الدين ويخـرج إلى الحيـاة وهـو يحمـل رصيـدًا كبـيرًا مـن المعاملة الطيبة التى تجعله يتغلب على صعوبات الحياة وتتزن انفعالاته فى فترة المراهقة بعد أن يكون قد تمكن من السيطرة على طاقة دوافعه ونزعاتـه بفضل توجيهه الوجهة الدينية السليمة ، ولهذا قال تعالى :

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُـكَ وَالْعَاقِبَـةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه ١٣٢].

كما قال مبينًا الصفات النفسية التى تحلى بها سيدنا يحيى : ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم ١٢] .

من أجل ذلك لزامًا علينا أن نهتم بتربية أولادنا التربية الدينية والنفسية اللازمة ، وأن نركز على الفترة الأولى من الحياة المدرسية للتلميذ أكبر تركيز ، وقد أخذ بهذا الاتجاه علماء النفس وقرروا أن شخصية الإنسان تبدأ فى التكوين فى الأيام الأولى من الحياة ويتم تكوينها سريعًا وتتبلور ملامحها من الصور المتلاحقة التى يستقبلها جهاز الأطفال العصبى والتى يحصلها من سلوك الآباء والأمهات والإخوة وكل ما يحيط به . وعندما يتم الرشد الدينى مبكرًا تمر فترات العمر الحرجة خاصة فترة المراهقة بسهولة ويسر.

ونجد القرآن يتحدث عن لقمان وهو يربى ابنه ويقول :

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان ١٧، ١٩] .

ونسمع وصية الرسول وهو يأمر الوالدين بتعليم الصلاة لأولادهم ويقول: « مروا أولادكم بالصلاة لسبع » وعندما يتم ذلك تنتصر طاقة الخير فى نفس الإنسان ويزداد رصيدها يومًا بعد يوم.

الرشدان الجسمى والنفسى :

ويتحدث القرآن عن طريقة المعاملة فى مرحلة النضج الجسمى وبلوغ الرشد عند فترة المراهقة ونضج الطاقة الجنسية ، ونجد القرآن يتحدث عن ذلك فى قوله : ﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور٥٩] .

ولما كان بلوغ هذا الرشد لا يتفق مع بلوغ الرشد النفسى دائمًا نجد القرآن يرشد إلى ذلك فى قوله تعالى :

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ [النساء ٦] .

أى أنه يجب علينا إذا بلغ اليتامى سن النكاح أن نتبين إن كانوا قد وصلوا إلى مرحلة سن الرشد النفسى ، فإن كانوا قد وصلوا فلا مانع عندئذ من إدارتهم لأموالهم ، وهذا يتفق مع ما توصل إليه العلم الحديث من مقاييس نفسية لمعرفة مدى درجة الرشد النفسى وحدوده الطبيعية .

القدوة النفسية :

ويوضح القرآن دور الآباء ويهتم بتأثير القدوة فى التربية النفسية :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [**الطور ٢١**].

ويدلل على القدوة السيئة بقوله تعالى :

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [**الصافات ٦٩، ٧٠**]

ويطالب المؤمنين بدوام الاقتداء بالقدوة الحسنة :

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾ [الأنعام ٩٠] .

ويلقى الضوء على القدوة الحسنة :

﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾
[الزخرف ٣٢]

الانطـلاق والـمـرح :

ويحذر القرآن من آثار الانطلاق غير الطبيعى ويقول :

﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء ٣٧،٣٨] .

ويقـول سبحانه :

﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان ١٨] .

ونرى آثار الانطلاق غير الطبيعى والمرح وهى تسبب البذرة الأولى للمرض العقلى « جنون المرح ».

الانطـواء :

ويحذر كذلك من الانطواء بل ويجعل العمل الجماعى هو قمة الأعمال حتى فى القيام بأعمال الشريعة من صلاة وزكاة وحج وغير ذلك، نجد التشريع تشريعًا للجماعة فى الصلاة فى الجماعة والحج فى جماعة كذلك، والصيام تقوم به الجماعة والزكاة فى مواعيد تخرجها الجماعة ويهدد

بالانطواء ويقول : ﴿أَفَمَن يَّمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَّمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك ٢٢]

ونجد أن آثار الانطواء تكون البذرة الأولى لمرض الفصام العقلى .

الوسط والاعتدال :

ويحبذ القرآن الاعتدال ويتحدث عن الأمة الوسط:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة ١٤٣] .

ويدعو إلى السلوك المعتدل فى قوله تعالى :

﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء ٢٩] .

وفى قوله : ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ [لقمان ١٩] .

وفى قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان ١٩].

وفى قوله تعالى :

﴿وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف ٣١] .

ولا يصل الإنسان إلى مرحلة الوسط إلا بالصبر ودوام التربية النفسية ، وهو عندما يصل إلى هذه المرحلة يكتسب رصيدًا نفسيًا يساعده على الحياة السعيدة ويقول القرآن عنهم: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَمًا﴾ [الفرقان ٧٥].

القـرآن والتعلـيم:

ويهتم القرآن اهتمامًا بالغًا بالتعليم ، ونرى أن أول آية فى كتـاب الله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق ١ ـ ٥] .

وتأتى السورة الثانية فى القرآن ويقول الحـق سـبحانه : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم ١،٢] .

هذا أكبر تكريم للتعلـم والحـض عليـه وأثـره فـى نـوال الإنسـان لرشـده النفسى ويكرم العلماء تكريمًا للعلم ، ويقول جل شأنه :

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر ٢٨] .

ويقول سبحانه :

﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر ٩] .

ويلقى القرآن الأضواء علـى عقـد نيـة الإنسـان ويعظـم أثرهـا فـى العلـم والعمل :

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران ١٥٩]

وقوله سبحانه :

﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران ١٨٦] .

وقوله جل شأنه : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه ١١٤] .

ويقرن القرآن بين التقوى وزيادة التعلم ويقول:

﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة ١٥١] .

﴿وَاتَّقُوا اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ ﴾ [البقرة ٢٨٢] .

فقرن بين التزكية والتقوى ونوال الإنسان مزيدًا من العلم :

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِم﴾ [الفتح ١٨] .

ويدفع القرآن بالمؤمنين إلى مزيد من طلب العلم ويقول:

﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف٧٦].

ويهتم القرآن بدور الصحة النفسية وتمامها فى تحصيل العلم ويقول:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص ١٤] .

ويطالب القرآن بصحبة أهل الفضل والعلم والبعد عن أهل الهوى ويقول: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف ٢٨] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام ٦٨] .

ويحمل العلماء مسئولية أمانة العلم ويندد بمن خان الأمانة:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة ٥]

ويطالب المتعلم بالاقتداء بالمعلم الصالح ، ويقول سبحانه :

﴿أولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِه﴾ [الأنعام ٩٠] .

ويطالب كذلك بدوام الاستبصار حتى لا يتوقف المعلم عند الانفعال، بل يتعداه إلى وضوح البصيرة وحسن الأداء ويقول:

﴿فَلَمَّا رَأى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام ٧٧] .

ويطالب المتعلم باختيار صديقه :

﴿وَأخِي هَارُونُ هُوَ أفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهِ مَعِيَ رِدْءًا ﴾ [القصص : ٣٤]

ويقول :

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ [القصص ٣٥] .

وبين تطابق سمات المؤمنين :

﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إخْوَانًا﴾ [آل عمران ١٠٣] .

ويهتم القرآن بمذاكرة العلم أثناء فترة الليل ويحدد للمتعلم وقتًا لقيام الليل ويقول :

﴿يَا أيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إلاَّ قَلِيلاً نِصْفَهُ أو انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً أوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل ١ ـ ٤] .

فيطالبه صلى الله عليه وسلم وهو قدوة الأمة بقيام الليل وترتيل القرآن ترتيلاً فى فترات الليل أو أقل منه أو أكثر حسب طاقته وهو الرحمن

الرحيم، ويقرر أن الاستذكار أثناء الليل ، يؤدى إلى ثبات المعلومات وحفظها:

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [المزمل ٦] .

والعلم الحديث وهو يقرر أن المذاكرة أثناء فترة الليل تؤدى إلى ترديدها فى عقل الإنسان أثناء النوم مما يساعد على حفظها خاصة إذا أعيدت عند الصحوة من النوم عند الفجر ، ونرى القرآن يوصى بذلك ويقول:

﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء ٧٨] .

السؤال ودوره فى عملية التعليم :

ويهتم القرآن بالسؤال ويعظم قدره فى حفظ المعلومات فيقول:

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُون﴾ [الأنبياء ٧] .

ويقول سبحانه : ﴿الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان ٥٩] .

ونجد علماء النفس يقدرون قدر السؤال فى قيمته التحصيلية ، ونجد فى سورة الكهف محادثة بين سيدنا موسى وهو ذاهب إلى الخضر يقطع وديانًا ووديانا طلبًا للعلم وقد أكد نيته وتوكل على الله بحثًا عنه:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف ٦٠]

وهذا قمة عقد النية والعزيمة ، وعندما وجد الخضر أنس إليه وأعظمه ومال إليه : ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف ٦٧]

ونجد موسى يتأدب طلبًا للعلم ويقول بلطف :

﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [**الكهف ٦٥**] .

ونرى الخضر يجاوبه أنه لن يستطيع صبرًا لهذا النوع من العلم:

﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [**الكهف ٦٧**] .

ويقول الخضر معقبًا على ذلك:

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾[**الكهف ٦٨**] .

ولكن موسى حبًا فى المزيد من العلم يقول :

﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [**الكهف ٦٩**] .

وأراد الخضر عندئذ أن يختبر موسى ليبين أنه لا يستطيع الصبر على ترك السؤال ، إذ على المتعلم أن يسأل عندما يعترضه موقف لا يدركه وعندئذ تثبت المعلومات فى ذاكرته ، ولو أنه ترك هذه المواقف لتفصمت سلسلة المعلومات وضعف التسجيل ، ولكن موسى كان متبعًا نابهًا، فلأول وهلة نجده ولم يعرف الحكمة فى خرق السفينة يسأل الخضر ولا يتوقف:

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [**الكهف ٧١**] .

فرد عليه الخضر الذى أعلمه بأهمية السؤال وأنذره من قبل أنه لن يستطيع معه صبرًا قائلاً :

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [**الكهف ٧٥**] .

وهـذا تعظيـم لقـدر السـؤال، ونجـد القـرآن يعطـى الإجابـة عـن أسـئلة السائلين فور السؤال فى عديد من المواقف والآيات التى جاءت عن السـؤال فى قوله:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ آيات عديدة وكلها اتصلت بالإجابة الفورية .

آداب السـؤال :

ويحض القرآن على التأدب مع المعلم فنرى سيدنا موســى وهـو يخاطبـه بكل أدب:

﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [**الكهف ٦٦**] .

ويطالب المعلم بسعة الصدر والرحمة على المتعلمين، فيقول سبحانه:

﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [**الشعراء ٢١٥**] .

ويطالب المعلم كذلك بدوام الاستقامة:

﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [**الشورى ١٥**] .

وفى ظل هذه المعيشة بين المعلم والمتعلم تسـكن شـخصية المتعلـم وتتسـع طاقة حفظه ومعرفته ، ونرى القرآن يهتم بتوجيه المتعلم بعدم الاعتراض أو طلب شىء لا يقره القانون والحق ، وأن تسلم نفـس المتعلـم للمعلم تسـليمًا كاملاً مادام ذلك فى سبيل الحق والقانون. ولننظر إلى هذه المحادثة :

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود ٤٥] .

وتمنى نوح ألا يغرق ابنه فيقول له الحق ردًا على سؤاله :

﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود ٤٦] .

أى أن هذا الموقف اعتراض على الحق المطلق فى مثل هذه المواقف ليس فى مكانه ، ويسرع نوح مستغفرًا:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود ٤٧] .

القضاء على الشهوات

وكما يتحدث علماء النفس المحدثون عن الدوافع والغرائز ويفردون لها أبحاثًا وأبحاثًا نجد القرآن يميط اللثام عنها منذ مئات السنين ويطلق عليها الشهوات وأن هذه الشهوات متعددة فيقول:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران ١٤] .

فيتحدث عن شهوة الجنس وشهوة حب الأبناء وشهوة التملك وشهوة التفاخر ، ونجده فى آية أخرى يتحدث عنها ، ويقول لأبى البشرية :

﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى﴾

[طه ١١٧-١١٩]

ونجده فى الآيات يعدد بعض الدوافع ويلقى الأضواء على أهمها وهى شهوة الأكل﴿ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ﴾ وشهوة الوقاية ولبس الملبوسات ﴿وَلاَ تَعْرَى﴾ وشهوة شرب الماء﴿ وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا﴾ وشهوة السكن والمقام فى مكان آمن ﴿وَلاَ تَضْحَى﴾ وبيَّن القرآن أن هذه الشهوات من متاع الحياة الدنيا فيقول:

﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران ١٤] .

وينير الطريق أمام الإنسان ويوضح له أن هذه الشهوات بدائية فى حياته ومؤقتة وأن الإنسان والحيوان متساويان فى هذه الدوافع ، ويقول سبحانه :

﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف ١٧٦] .

ويطالب الإنسان بالتفكر والتدبر فى هذه الشهوات وكبح جماحها وعدم الميل كل الميل مع الإسراف فيها، ويقول:

﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا﴾ [النساء ٢٧] .

وعندما يضرب المثل بهؤلاء الذين يميلون إلى الميل العظيم مع الشهوة يبين أن هذا هلاك للإنسان واستنفاد لطاقته وصحته، فيقول سبحانه:

﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾

[الأعراف ١٧٦، ١٧٧]

ويعد من كبح جماح شهواته وروضها إلى مدارج التوسط والعمل بها مع الجماعة فى إطار القانون والدين يعده بجنات ورضوان، فيقول سبحانه:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات ٤٠، ٤١]

ويدفع القرآن بالمؤمن فى طريق الاعتدال مع الشهوات والاستبصار مع ضروريات حياته الدنيا والآخرة ويضع له العلاج عن طريق الصبر:

﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت ٣٥].

وينبه أن طاقة الصبر من عزم الأمور :

﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [لقمان ١٧] .

ويعد الصابرين بالفوز:

﴿أولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ [**القصص ٥٤**] .

ويعدهم بمزيد من درجات الثواب :

﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أجْرَهُمْ بِأحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [**النحل ٩٦**] .

وعندما تقوى طاقة الصبر يصبح المؤمن الصابر بدرجة عشرة من غير الصابرين، فيقول سبحانه:

﴿إن يَكُن مِّنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائتَيْنِ وَإن يَّكُن مِّنْكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا ألْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ [**الأنفال ٦٥**] .

ويتحدث القرآن عن قيمة الصبر ، فيقول : إن الصابر الضعيف تقوى طاقته حتى يصبح فى أول مراحل الصبر يتمتع بطاقة اثنين من غير الصابرين فيقول:

﴿الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإن يَكُن مِّنْكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْن﴾ [**الأنفال ٦٦**] .

وبفحص هذه الظاهرة تجد الحق عز وجل ركب طاقات أعضاء الإنسان جمعيًا على أن يقوم جزء يسير منها بالعمل فى إبان حياة الإنسان الطبيعية وادخر باقى الطاقات والأجهزة وذلك حتى يقوم بها المؤمن الصابر فى الوقت المناسب، فالعضلات جميعًا تعمل ببعض طاقاتها، وعند الاستثارة تعمل بكل طاقاتها فنراها تقوى عشرة أمثال طاقتها الأولى ، وكذا طاقات الجهاز العصبى تعمل عملها الطبيعى بعشر طاقاتها وحتى خلايا الكلية والكبد تعمل بعشر طاقتها وعند الطوارئ تراها وقد زاد إنتاجها إلى عشرة

أمثالها، واستبصار المؤمن لهذه الحقيقة يعطيه الأمان والسكينة ونراه عند الطوارئ النفسية فرحًا مستبشرًا وبصبره تزداد طاقة إنتاجه، والنتيجة :

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ [**الأنفال ٦٥**] .

الصبر مادة كيميائية :

وقد تم فى السنين الأخيرة اكتشاف مادة كيمائية تفرزها خلايا المخ خاصة القشرة العليا من فصى المخ ، وأطلق العلماء على هذه المادة « أندروفين » ووجدوا أن هذه المادة الكيميائية تزداد فى دم الإنسان، وكلما زاد صبره على الآلام المختلفة ، زادت إرادته فى إنجاز عمل خاص ، وأن هذه المواد الكيميائية تعين الإنسان على وقف الألم وعلى زيادة التحمل وعلى استقرار طاقات الإنسان وهو يواجه الصعوبات والمخاطر، ولذا أطلقوا عليها وصف «أفيونات المخ » .

وتفرز هذه المادة مجانًا بدون مقابل إلا مقابل الصبر وتأكيد الإرادة والاستعانة بالقدرة على التحمل ، وكلما زاد الصبر وجد أطباء التحليل زيادة مادة « الأندروفين » فى الدم وهذا إعجاز للخالق للعظيم الذى وعد الصابرين بدرجات من النعيم ، وتتعدد طاقاتهم نتيجة زيادة إمدادهم بهذه المواد الكيميائية قدر صبرهم والتوكل الحق على القوى القادر المتين.

ولننظر إلى جمال الآية القرآنية للمؤمنين العالمين بقدرة خالقهم العظيم على إمدادهم بالنصر والفوز يقولون : ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [**البقرة ٢٥٠**] وهذه الكلمات تدل دلالة واضحة أن الصبر مادة كيماوية تأتى من

أعلى طاقات الإنسان العصبية وتفرغ عليه عونًا من عند الله الخالق البارئ المصور المعين ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ [البقرة ٢٥٠] ويكون الناتج ثبات الإنسان المؤمن ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ وتكون الجائزة:

﴿وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة ٢٥٠] .

هذه الكلمات عن الصبر على قدر تأملات الكاتب ، أما حقيقة الصبر فلا فيها إلا الخالق العظيم الصبور، وهذا إعجاز نفسي قرآني ومعجزة تشريحية يميط القرآن عنها اللثام ويحدد أن العليم بخبايا طاقته هو الفائز، وأما الجاهل فهو الخاسر ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال٦٥] .

ودرجات الصبر فوق هذه الدرجات .. فنرى سيدنا إبراهيم وقد أسلم كيانه كله للصبر فتقوى درجاته إلى عشرات المرات وصفه القرآن بقوله سبحانه :

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا للهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل ١٢٠،١٢١] .

والصبر يرفع درجات العبادة ويقول القرآن :

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه ١٣٢] .

ويوصى على الصبر على كلمة الحق:

﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ [الأحزاب ٣٥] .

والصبر مقرون بعمل الصالحات ﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود ١١] . والصبر مقرون بأعلى الدرجات ويبشر الله الصابرين بقوله سبحانه :

﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل ٩٦] .

صلح النفس:

ونجد أن الصبر أساس صلح النفس، وجهاد النفس يؤدى إلى ترويضها ونضجها : ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات ١٥] .

ويطالب القرآن بدوام التغير إلى الأحسن :

﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد ١١] .

ويطالب بعدم الرجوع إلى هوى النفس القديم:

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [الفتح ١٠] .

ويحث على المثابرة فى ترويض الإنسان لنفسه أولاً :

﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة ١٠٥] .

ويربط بين الذكر والفكر والترويض، ويقول: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران١٣٥]

ويضع جهاد النفس والصبر على هواها حافزًا للسعادة النفسية :

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِيـنَ جَـاهَدُوا مِنْكُـمْ وَيَعْلَـمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران ١٤٢] .

الأســرة :

ويركز القرآن على الأسرة أكبر تركيز ويقول سبحانه :

﴿وَمِنْ آيَاتِه أنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أنْفُسِكُمْ أزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إلَيْهَا وَجَعَـلَ بَيْنَكُـم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم ٢١]

وفى كلمة تسكنو تظهر الحكمـة النفسية فـى الـزواج وتكويـن الأسـرة، حكمة التمتع بدافع حب الجماعة وحكمـة تسـكين دافـع الجنـس وحكمـة التعاون على ضروريات الحياة ويومًا بعد يوم يزداد عدد الأسرة :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّـن نَّفْـس وَاحِـدَةٍ وَخَلَـقَ مِنْـهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأرْحَامَ إنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء ١] .

وجعل أساس تكوين الأسرة تقوى الله ، ولا يصل الإنسان إلى تقـوى الله إلا بعد أن يكون قد كبح جماح الشهوات وتم التصالح والتعايش بين النفس الإنسانية ذات الشهوات الحيوانية والنفس الإنسانية الراقيـة المطمئنـة فـى ظل تقوى الله :

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَـادْخُلِي فِـي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر ٢٧ ـ ٣٠] .

ويتحدث القرآن الكريم فى فيض من آياته عن الأسرة وعن تكوينها فى سورة النساء وغيرها هديا. يعد النموذج الخالد لسعادة البشر نفسيًا .

وأوصى الآباء بتربية أولادهم التربية النفسية السليمة المعروفة بالتقوى:

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾ [**النساء ٩**] .

وضرب عدة أمثلة على حياة الأسرة الفاضلة لتكون نموذجًا يحتذى، ويتدرج القرآن من رعاية الأسرة إلى رعاية المجتمع الذى يتكون من عديد من الأسر:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [**الحجرات ١٣**] .

فجعل التقوى كذلك هى عماد التكريم والفلاح ليس فقط بين الوالدين، ولكن بين الأسرة والمجتمع على أعلى مستوياته.

❋❋❋

كتب للأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم تصدر عن

أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى

١ - الشفاعة فى ضوء الكتاب والسنة والرد على منكريها .

٢ – التشريع الإسلامى - مصادره وخصائصه .

٣ – النفس فى القرآن .

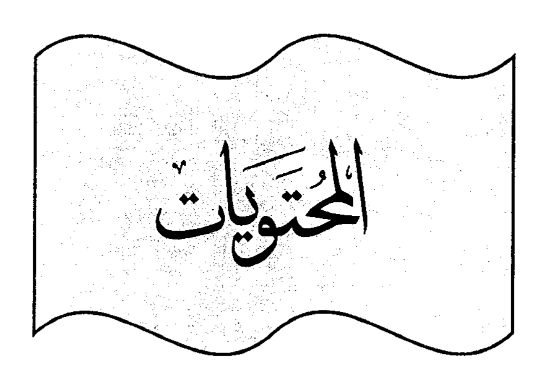
٤ – أضواء من هدى النبوة .

٥ – من توجيهات الرسول .

٦ – سبل السلام .

٧ – أصحاب الجنة .


تطلب جميع أعمال الكاتب
من
أطلس
للنشر والإنتاج الإعلامي
ش.م.م.
أطلس
للنشر والإنتاج الإعلامى


المُحتَويات



أطلس
للنشر والإنتاج الإعلامى